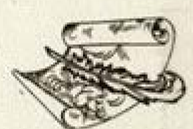
الأعلام من الأدباء والشعراء



النابغة الجعدي

عصره، حياته وشعره

تأليف
أحمد حسن بسج

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء

النابغة الجعدي

عصره، حياته وشعره

تأليف

أحمد حسن بسج



دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٦٠٢١٣٣
فاكس: ٤٧٨١٣٧٣/١٢١٢/٠٠ - ٩٦١١/٦٠٢١٣٣/٠٠



المقدمة

تتناول هذه الدراسة عَلَماً من أعلام الشعر والأدب في ما بين الجاهليّة والإسلام. إنّه النابغة الجعدي، الصحابي الجليل، والشيخ الحكيم، والشاعر المغلق. ولقد رأيت، وانطلاقاً من مبدأ تيسير العلم وتبسيطه، أن أقدّم هذا الكتاب، ليكون مرجعاً متواضعاً للطلاب والباحثين، لا سيّما وأن مكتبتنا العربية تفتقر إلى مثل هذا النوع من الدراسات، وإن وُجدت، فهي في أكثر الأحيان تنحصر في عصر دون عصر، وتهتم بشاعر دون آخر، ولملء هذا الفراغ، جاء هذا الكتاب، وسيتبعه، إن شاء الله تعالى، كتبٌ أخرى، آمل أن يجد فيها القارىء الكريم ما ينفعه ويرضيه، وليلتمس لي العذر إنْ كنت لم أبلغ الغاية.

والحمد لله رب العالمين

أحمد حسن بسج

بيروت: الاثنين ٢٧ ربيع الأول ١٤١٤ هجرية

الموافق في ١٣/٩/١٩٩٣ رومية

الفصل الأول

الجاهلية

يتناول هذا الفصل دراسة الأحول العامة، التي أحاطت بالنابغة الجعدي، وبما أنه عايش عصرين مختلفين: أعني الجاهلية وصدر الإسلام، كان لا بدّ من إلقاء الضوء على البيئة الجاهلية، بكافة مظاهرها، للانتقال، بعد ذلك إلى دراسة البيئة الإسلامية الجديدة، وإظهار ما في البيئتين من العناصر المشتركة، والتي كان لها الدور الأبرز في توجيه الحياة الأدبية، فيما بعد وخصوصاً في شاعرية النابغة قيس بن عبد الله الجعدي، موضوع هذا الكتاب.

الجاهلية:

يميل كثير من الباحثين إلى التفريق والتمييز بين جاهليتين: أولى، ولم يصلنا من أخبارها سوى ما جاء به القرآن الكريم من قصة ثمود وعاد، وأخبار أخرى، ليست كافية، كي نتمكّن من رسم معالم دقيقة للحياة الأدبية، والفكرية في تلك الفترة. وجاهلية ثانية، وهي الأقرب إلينا، وتمتد إلى مئتي عام على الأكثر قبل البعثة النبوية، وهذا ما قرّره الجاحظ في معرض حديثه عن تاريخ الشعر العربي حيث قال: «أما الشعر فحديث الميلاد صغير السن، أول من نهج سبيله وسهّل الطريق إليه، امرؤ القيس بن حُجر ومهلهل بن ربيعة. . . فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له ـ إلى أن جاء الله بالإسلام ـ خمسين

ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام»[1]. وبناء عليه فإن أي حديث عن الجاهلية، لا بدّ وأن يتناول هذه الفترة، نظراً لوصول أخبارها إلينا، فضلاً عن آدابها من شعر وخطابة وسجع كهان.

أمّا التسمية، فإنها مشتقّة من الجهل لما كان يتفشى في ذلك العصر من سَفَه وطيش، وعبادة للأوثان، وبعدٍ عن جادة الصواب، وليس فقط لجهلهم في الأمور العلمية، وقد جاء في القرآن الكريم ما يثبت ذلك فقال[2] تعالى: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾؟ وقال[3] أيضاً: ﴿خذِ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾. وقد استعمل شعراء العصر كلمة الجهل بهذا المعنى أي الطيش والغضب والنزق، فقال[4] عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

البيئة الطبيعية:

قسّم الجغرافيون شبه الجزيرة العربية إلى خمسة[5] أقاليم مناخية وطبيعية:

١ ـ تهامة: وهي الأراضي المنخفضة التي تمتد بمحاذاة البحر الأحمر من ينبع في الشمال إلى نجران في الجنوب، وسُمّيت تهامة لشدّة حرّها.

---

(١) الحيوان للجاحظ: ١/ ٧٤

(٢) سورة المائدة: آية ٥٠.

(٣) سورة الأعراف: آية ١٩٩.

(٤) شرح المعلّقات السبع: ١٢٧.

(٥) تاريخ الإسلام، حسن ابراهيم حسن ١/ ٤.

٢ ـ الحجاز: ويمتد هذا الإقليم إلى الشرق من تهامة، ويحدّه اليمن من الجنوب، ويتخلّل هذا المنطقة سلسلة جبال السراة، بمحاذاة تهامة، وتمتد من الشام إلى نجران يتخللها أودية كثيرة، وتقع مكة المكرمة في إحدى هذه الأودية، كما يضم هذا الإقليم يثرب أو المدينة المنوَّرة، إلى الشمال من مكّة المكرَّمة. ويعتبر هذا الإقليم فقيراً بموارده الطبيعية فهو قليل المياه، وأراضيه مجدبة قليلة النبات والزرع، والحرارة مرتفعة. وتُعد الطائف من أهم مدن الحجاز بل هي بستانه الأخضر لما فيها من ماء وخضرة وطيب هواء.

٣ ـ نجد: وهو إقليم مرتفع الأرض، ويمتد ما بين اليمن في الجنوب إلى بادية السماوة في الشمال، والعروض وأطراف العراق، ويتمتع بكثرة مراعيه، وطيب هوائه، واعتدال مناخه، وقد نشأ في هذه المنطقة أكثر الشعراء الجاهليون.

٤ ـ اليمن: ويحدّه جنوباً المحيط الهندي ويتصل بنجد من جهة الشمال، وبحضرموت من الشرق، والبحر الأحمر من الغرب. ويُعرف هذا الإقليم بطيب هوائه ووفرة مياهه واعتدال مناخه، وقد عرف حضارة عريقة قديماً، تمثَّلت بإقامة سد مأرب الذي دمَّره السيل.

٥ ـ العَروض: ويشمل اليمامة وعُمان والبحرين، ويفصل بين هذه المناطق مساحات شاسعة من الأراضي المقفرة التي لا ماء فيها ولا نبات. أما البحرين وهي ما يعرف اليوم بالأحساء، في شرقي الجزيرة العربية على الخليج العربي، فأراضيها خصبة ومياهها وفيرة، وأهم منتوجاتها التمر.

البيئة الاجتماعية:

انقسم العرب في بلادهم إلى قسمين: بدو وحضر وذلك تبعاً لنمط الحياة الذي اتبعه كل فريق.

أما البدو، فهم سكان الصحراء، وكانوا رعاة يتنقّلون من مكان إلى آخر طلباً لموارد الماء وبحثاً عن الكلإ لمواشيهم، فلا يكاد يستقر البدوي في مكان حتى يهجره إذا قلّ الماء والغذاء، فإن لم يجد مكاناً آخر اضطر للغزو والسلب والنهب، فكثرت الحروب والغارات، وانبرى الشعراء يعبّرون عن ذلك الواقع، ويتفاخرون ببطولاتهم وإنجازاتهم، وأيامهم وكثرة عددهم. وهكذا كانت العلاقات الاجتماعية متقطعة، والأواصر مفكّكة لا رابط بين الناس سوى العصبية القبلية، الناتجة عن الرابطة الدموية ضمن إطار القبيلة الواحدة. من هنا القول بأن النظام القبلي هو النظام الأساس وهو المحور الذي يلتقي حوله الأفراد، وهو نظام يخضع الفرد لإرادة الجماعة ولو على غير هدى، فالعضو في القبيلة جزء منها لا شخصية له، ولا كيان، فلا يقدر على مخالفة ما تجمع عليه القبيلة وتقرره.

وهو ملزم بالانصياع، وتنفيذ ما يطلب إليه في سبيل المجموع ولا خيار له إلا ذلك، يقول دريد بن الصمة[1]:

وهل أنا إلاّ من غزيةَ إن غوتْ
غويتُ وإن ترشُدْ غزيةُ أرشُدِ

وهكذا لا تكاد القبيلة تخرج من معركة حتى تدخل في غيرها فإما أنها تغزو أو يغزوها غيرها، يقول[2] دريد بن الصمة:

---

(١) هو شاعر جاهلي من سادات قومه، والبيت في ديوانه: ٤٧.
(٢) ديوانه: ٦٤.

يُغار علينا واترين فيشتفي
بنا إنْ أصِبْنا أو نغيرُ على وِترِ

ونظراً لهذا الأسلوب في الحياة، الذي يعتمد على القتل والسلب والنهب، والكرّ والفرّ، تأصّلت في العربي عادات وتقاليد وقوانين، ودخلت في صلب كياناته الاجتماعية والنفسية، وصارت طبعاً لا يفارقه؛ فقانون الاحتكام إلى القوة هو النتيجة الحتمية لحالات العداء القائمة بين القبائل، ومن مستلزمات ذلك الإعداد الدائم للحرب ما تتطلبه من مال وسلاح وشجاعة وجرأة وإقدام وصبر ونجدة وجود، وغير ذلك مما يقع تحت عنوان المروءة، فضلاً عما تقتضي الحرب من رجال. فصار العربي يعد ما ذكرناه من مفاخره ومناقبه. ولا بدّ من التذكير هنا بمقولة جاهلية كانت من نتائج نظامهم هذا وهي قولهم انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، فمن العار التخلي عن نصرة الأخ أو ابن العم مهما كانت الأسباب والنتائج.

أما المرأة، فقد حظيت بقسط من الاحترام، وتمتّعت بشيء من الحرية وكانت تستشار في كثير من الأمور[1]، وتشارك الرجل في أعماله وقراراته، وقد عبّر الشعر الجاهلي عن ذلك بأن فاخر بعض الشعراء بأمهاتهم[2] كما فاخروا بآبائهم، وما افتتاحهم قصائد المدح والفخر بالنسيب إلّا دليل واضح على مكانة المرأة العالية. أمّا نظام الزواج والطلاق فكان لهم فيه قواعد وأصول متبعة، تعتمد على رضى ذوي أمر الزوجة وهي نفسها كانت تُستشار في كثير من الأحيان. أمّا الطلاق فكان من حقّ الرجل، وقد تمتّع بعض النساء بذلك الحق

(١) تاريخ الاسلام، حسن ابراهيم حسن: ١/٦٤.
(٢) المصدر نفسه: ١/٦٤.

بناء على رغبتهن[1]. ولكن الأمر الذي يؤخذ عليهم هو الوأد، وأد البنات خشية العار والفضيحة، وبعضهم كانوا يقتلون الأولاد عموماً خوفاً من الفقر، وقد حرّم الإسلام ذلك تحريماً قاطعاً.

وإذا تحدثنا عن الأحوال الاجتماعية، لا بدّ لنا من التحدُّث عن الثراء والفقر والطبقات الاجتماعية تبعاً لذلك. ومما يلفت الانتباه أن مكّة المكرّمة تميّزت عن غيرها، إذ شهدت نشاطاً تجارياً ملحوظاً بحكم موقعها في منتصف الطريق بين الشام واليمن، على طريق القوافل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فقد كانت تحتل مكانة دينية متميِّزة بسبب وجود الكعبة فيها والأصنام، لذلك صارت مقصداً للتجار وللزائرين على السواء. ومنها كانت تنطلق القوافل التجارية شمالاً وجنوباً برحلات شتوية وصيفية ورد ذكرها في القرآن[2]، أدّت إلى ظهور طبقة ثريّة من أمثال أبي سفيان والوليد بن المغيرة وعبد الله بن جدعان، فتهافت الشعراء على هؤلاء الأثرياء يمدحونهم لينالوا عطاءهم كما فعل أمية بن أبي الصلت في مدح عبد الله بن جدعان الذي يقال إن جفنته كانت تظلّ الناس من حرّ الشمس.

وبالمقابل كان هناك طبقة من الفقراء وخصوصاً في ظواهر مكّة المكرّمة، ليس لهم في التجارة نصيب ولا مجال يعملون فيه، إلا بعض المهن والصنائع بالإضافة إلى الخدم والعبيد وهم الطبقة الأكثر فقراً.

---

(١) المصدر نفسه: ٦٥/١.

(٢) قال تعالى: ﴿لإيلاف قريش. إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. فليعبدوا ربَّ هذا البيت. الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾. سورة قريش: آيات ١، ٢، ٣، ٤.

البيئة الدينية:

دان أكثر العرب في الجاهلية بالوثنية، فعبدوا الأصنام والأوثان من دون الله تعالى، ويقال إن أول من نقل الوثنية هو عمرو بن لُحيّ الخزاعي، وكان رأى من يعبدها في الشام فنقلها إلى مكّة المكرّمة، فانتشرت، وشاعت عبادتها حتى اتخذت كل قبيلة لها صنماً ونصبوها حول الكعبة. وأكبر الأصنام، وكان لقريش، «هُبل» وهو من العقيق الأحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى وقد صنعوا له يداً من ذهب. ومن أصنامهم المصوّرة أيضاً «وَدّ» و«يغوث» و«يعوق» و«نسر» وقد ذكرت هذه الأصنام في القرآن الكريم بقوله[1] تعالى: ﴿وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ وَداً ولا سُواعاً ولا يَغُوثَ ويعوقَ ونسراً﴾

أمّاالأوثان - وهي أشكال ومجسّمات غير مصوّرة على هيئة إنسان أو حيوان - منها: اللّات بالطائف ومعناها الإلّه أو الشمس، وهي صخرة مربّعة أقيم عليها بناء، وقامت ثقيف على سدانتها، وبلغت هذه الصخرة من القداسة عندهم أن سمّوا أولادهم باسمها فقالوا زيد اللّات وتيم اللّات... ومنها: العُزّى وهي شجرة كانت في وادي نخلة على الطريق من مكة إلى العراق. ومنها أيضاً مناة وهي أقدم الأوثان وتدل بنظرهم على القضاء والموت، وموقع هذا الوثن على ساحل البحر بين مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة، وقد كسره الإمام علي سنة ٨ هـ.

ومن الجدير بالذكر أنهم كانوا يعظّمون الكعبة ويحجّون إليها كل عام، من جميع الجهات.

---

(١) سورة نوح: آية ٢٣.

ولم تكن الـوثنية هي الـدين الوحيـد، بل كـانت هنالـك ديـانـات أخرى، أو اتجاهات دينية منها الصابئة وهـم عَبَدة النجوم والكواكب؛ وانتشرت هـذه الديـانة في اليمن والعـراق وحـرّان، كـذلـك عـرفت الزرادشتية نسبة إلى زرادشت، وهي ديانة فارسية قديمة تقول بـوجود إلّـه للخير وآخـر للشرّ، وانتشرت في بلاد فـارس والبحرين من بـلاد العرب.

كما عرفت اليهودية، وكانوا في اليمن وفي مدن وتجمُّعات أخرى في الحجـاز مثل خيـبر ويثرب وتيـماء. وقـد بـرز منهم شعـراء من أمثـال السموءل بن عادياء، ومن أهم قبائـل اليهود بنـو قريـظة وبنو النضـير وبنو قينقاع.

أمـا النصرانية، ففي قبـائل تغلب وغسّـان وقُضـاعـة في الشـمال، وكذلك في نجـران واليمن، وعرف مـذهبان للنصـارى: النسطوريـة وكانوا في الحيرة، واليعقوبيـة في غسّان وسـائر الشـام، وتعتبر نجـران أهم مـوطن للنصارى في تلك الحقبـة، وكان أهلهـا من ذوي الحِرَف وأهل صناعة كالمنسوجات الحريرية وعرفـوا بتجارة الجلود والسـلاح. وقد برز من النصارى طائفـة من الشعراء جمع أخبارهم الأب لـويس شيخو في كتاب سمّاه «شعراء النصرانية».

بالإضافـة إلى هذه الفـرق والأديان، فـإن فرقـة أخرى عـرفت في الجاهلية ولـو أنها الأقل من نـاحية العـدد، ولكن وجودهـا يدلُّ عـلى وجود أناس عقلاء، يدركون بالفـطرة سوء مـا وصلت إليه حـالهم في عبـادة الأوثان، فـبرزت طائفـة، في أوقات مختلفـة على رفض الفسـاد والـوثنية ودعـوا إلى التخلُّص من كل العـادات التي تدلّ عـلى السفـه والطيش كوأد البنات، وشرب الخمر ولعب الميسر، ودعوا بالمقابل إلى أعمال المروءة وحضّوا على المكـارم، ويطلق المؤرِّخـون على هـذه الفئة

اسم «الأحناف» أو الحنفاء، لأنهم كانوا يرون أن هنالـك خالقـاً وإلهاً واحـداً لا شريـك لـه ولا شبيـه هــو الله المعبـود بحق، ولم يقتنعــوا بـالنصرانية واليهـودية. من أولئـك قُس بن ساعـدة الإيـادي خـطيب العرب المشهور الذي شهده النبي ﷺ خطيباً في سوق عكاظ[1]، قبـل بعثه، وقد أعجب بكلامه، ومن خطبه الشهـيرة قولـه: «أيها النـاس اسمعوا وعوا من عاش مات، ومن مات فات، وكل آت آت، إن في السماء لخبراً وإن في الأرض لعبراً. . .».

ومن يتأمّل شعر أمية بن أبي الصلت يـدرك معنى ما نـذهب إليه، ولكن أمية أدرك النبي ﷺ ولم يسلم، حسداً لأنه كان يمني نفسه أن يكون نبياً، وقال عنه النبي ﷺ، عندما أُنشد شعره: «آمن لسانه وكفر قلبه»[2].

البيئة السياسية:

لم يعرف العرب في جاهليتهم أنظمة سياسية متطورة للحكم كما في بلاد روما قديماً، كذلك لم يُتبع منهج واحد للحكم في جميع المنـاطق، فتميـّز بالتـالي بين عـدة أشكال للحكم قـامت في منـاطق مختلفـة وفي حقب زمنية متفاوتة. من هذه الأنظمة ما اتبع في كل من إمارتي الحـيرة والغساسنة. أمـا الأولى فتقع عـلى الحدود الفـاصلة بين شبـه جزيـرة العرب من جهة وبين الدولـة الفارسيـة وكذلـك دولة الـروم من جهة ثانية. وكـان سكان هـذه الإمارة من العـرب، وقد تمتعت بـاستقلال شبه تام إذ كـان الفرس يتـدخلون في شؤونها بين وقت وآخـر ولو عن طريق المعاهدات التجارية والأمنية وغيرها، مما يعود بـالنفع أولاً عـلى الفـرس. ويرجـع تاريـخ هـذه الإمـارة إلى القـرن الثـالث الـرومي،

---

(١) البيان والتبيين: ١/٣١.

(٢) الشعر والشعراء: ٣٠٠.

واستمرّ وجودها حتى الفتح الإسلامي. وقد تعاقب على حكمها ملوك عرب لخميون عرفوا بالمناذرة، منهم النعمان بن امرىء القيس. ونذكر هنا بالدور الذي لعبته هذه الإمارة في نقل حضارة الفرس إلى بلاد العرب وخصوصاً في مجال القراءة والكتابة.

أما الإمارة الثانية أي إمارة الغساسنة، فقد نشأت بمساعدة الروم في الشام حول دمشق وما يحيط بها في لبنان وفلسطين والأردن. وينتمي الغساسنة في نسبهم إلى قبيلة الأزد اليمنية ومن أهم ملوكهم جفنة بن عمرو، واستمرّت هذه المملكة حتى الفتح الإسلامي حيث زالت بعد معركة اليرموك سنة ١٣ هـ. وكان آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم. ومما يذكر أن هذه الدولة، كجارتها الحيرة، قد بلغت درجة عالية من الرقي والحضارة وخصوصاً في مجال العمارة، فالحصون كانت كثيرة فيها وكذلك الكنائس، والمباني عموماً كانت مجلّلة بالحجارة البيضاء، وقد نعم أهلها بالأمن والرخاء، وملوكها اقتنوا الجواري الروميات، كما تعلّموا الفنون القتالية، واستفادوا من اللغات الأجنبية فأدخلوا من اللاتينية واليونانية مفردات إلى العربية.

أما الحجاز، فقد عرف استقلالاً تاماً في مختلف العصور، ولم يستطع الفرس، أيام قوّتهم وسطوتهم، أن يهيمنوا على هذا الإقليم، لذلك حافظ العرب على وحدتهم فتميّزوا بالعقائد واللغة والعادات عن غيرهم من الأمم. وتعتبر مكّة المكرّمة عاصمة هذا الإقليم والسيادة فيها لقريش ألا وهي أقوى القبائل وأكثرها عدداً، وكانت السيادة قبل ذلك لخزاعة اليمنية. ويرجع القرشيون في نسبهم إلى النبي إسماعيل عليه الصلاة والسلام، لقول سيدنا محمّد ﷺ: «اختار الله من إسماعيل كنانة، واختار قريشاً من كنانة، واختار بني هاشم من قريش، واختارني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار من خيار».

وقد عرفت مكة شيئاً من التنظيم الإداري، يتمثّل بتأسيس دار الندوة كما ألمحنا، والذي أسّسه قصي بن كلاب، وهو مجلس يلتقي فيه الأعيان للتشاور في الأمور الهامة. وقد اجتمع لقصي هذا كل ما يؤهّله للقيادة، فهو رئيس دار الندوة، وبيده لواء الحرب، وله سدانة الكعبة وسقاية الحجيج. وعند ظهور الإسلام كانت سقاية الحجيج بيد العباس بن عبد المطلب، والرفادة كانت أيضاً للعباس بعد أخيه أبي طالب.

وفي نجد عرفت مملكة كندة، وكانت نشأت إثر استيلاء حسّان تبّع، ملك اليمن، على بعض نواحي نجد، فساعد رجلاً من بني كندة على إقامة تلك المملكة كان يرافقه ويساعده في حمله.

ولكن هذه المملكة لم تعمّر طويلاً، إذ قُتل ملكها حجر الثاني (والد الشاعر امرىء القيس)، وبمقتله تقاسمت القبائل النفوذ في تلك المناطق، وظل امرؤ القيس الشاعر ينشد ملك أبيه حتى وفاته وعرف لهذا السبب باسم الملك الضِلّيل. ويقال إن الكتابة دخلت الحجاز أيام هذه المملكة على يد رجل يدعى بشراً الكندي.

وقد عرضنا في ما تقدّم إلى إمارات وممالك قامت على أجزاء محدّدة من بلاد العرب، وبالتالي لم يكن لها نفوذ واسع، فبقيت أكثر البلاد خارجة عن نطاق هذه الدويلات، وخصوصاً البوادي الداخلية وما يليها وصولاً إلى البحرين، حيث ساد النظام القبلي، ومثّلت القبيلة الوحدة السياسية التي تتمتّع بحرية قرارها واستقلالها على أرضها فلا تبغي قبيلة على أخرى إلاّ لتشتعل نيران الحرب. ويرأس القبيلة شيخ أو أمير له صفات منها الشجاعة والكرم والذكاء والفصاحة وغير ذلك مما يقتضيه منصب القيادة، وكان أعضاء القبيلة يحترمونه وينفّذون

أوامـره، دون اعتراض، يعـاونه مجلس استشـاري من وجوه القبيلة، ومن مهامه تقسيم الغنائم وله أن يحتفظ بربعها.

البيئة العقلية والأدبية:

عرفت بلاد الشام والعراق واليمن حضـارة قديمـة في البناء، وكـما أشرنـا، في الحيرة وإمـارة غسّان، وسـدّ مأرب في اليمن، كـما عرفت هذه الأقاليم العلوم الأخرى التي لها علاقة مبـاشرة بالحيـاة، كالـطب والحسـاب والنبات والـريّ، وقد تـأثّـروا في ذلـك بجـيرانهم الفـرس والروم. أما سائر الأنحاء، من شبه الجزيرة، فلم يكونوا عـلى علاقـة بـالعلوم العقلية أو غـيرها إلّا لمـاماً، فقـد أتقنوا علم الأنـواء لاتصال ذلك بطرق معـاشهم ليتعرّفـوا على أوقـات نزول الغيث، ومهـروا في علم القيافة في معرفة الآثار وتتبّعها، خصوصاً آثار الأقدام التي كانت تنطبع على الرمال، ومن العلوم التي ابتكروها واهتمّوا بها اهتماماً بالغاً علم الأنسـاب، ونشأت الحـاجة إلى مثـل هذا العلم كنتيجـة لسيـادة الروابط الدموية والعصبيـة التي كانت تُبنى عـلى أساسهـا التحالفـات الفـردية والجـماعية. ومن علومهم التي تكـاد تكون خـاصـة بهم علم الفراسة، وهو الاستدلال على الصفات الشخصيـة من خلال المـلامح الخارجية أو الحركات العضوية لشخص مـا. أما العـرافة فهي ضرب من التـوهُّم وتوقُّـع ما يكـون، على زعمهم، في المستقبـل، بـواسـطة ضرب الحصى وزجر الطير والاستقسام بالأزلام وغير ذلك.

أما في مجال القراءة والكتابة، فلم يثبت أن العرب قـد اهتمّوا بهـما قبـل البعثة النبـوية، وكـانت مسـألـة فـرديـة تعـود إلى رغبـة المتعلّم وحاجته، وأوائـل المحاولات الجـادة في تعليم القراءة والكتـابة كـانت لاحقـاً في عهد النبي ﷺ وبـأمره عنـدما طلب من أسرى بـدر الذين

يعرفون القراءة والكتابة، أن يعلّم كلٌ منهم عشرة من أبناء المسلمين، وذلك يعتبر فداءً لأسرهم.

ولكن الأمر الذي تفوّقوا فيه، وعلى الفطرة، الشعر أولاً والخطابة ثانياً، وكانت مكّة المكرّمة تمثّل المحطة بل المركز الذي يلتقي فيه العرب تجارهم وشعراؤهم وخطباؤهم، فيحجّون ويزورون ويتجرون ويتطارحون الشعر ويتبارون في ذلك أمام نقّاد خبراء في صنعتي الشعر والخطابة، كالنابغة الذبياني، وأحكامه مشهورة في سوق عكاظ، فالاجتماع في مكّة المكرّمة، كان في البداية لأسباب دينية، ولكنه تحوّل مع الأيام إلى لقاء منافع متبادلة تجارية وعلمية وأدبية.

والشعر العربي مقفّى موزون، وبما أن أوائله تعود إلى هذا العصر، فإنه كان أصيلاً لا نظن أنه أخذ أنظمته عن الأمم المجاورة، خصوصاً لأنه نشأ في نجد، وأهل نجد لم يتصلوا بجيرانهم مباشرة. وقد يكون هنالك علاقة بين قواعد الشعر والمعتقدات الدينية، التي تختلط برهبة وقداسة اقتضت أن يعبّر عنها الناس بكلمات خاصّة ومركّبة تركيباً خاصّاً ذي نغمة موسيقية معبّرة، وهكذا كانت أولى الأناشيد، ما لبثت أن اعتمدت طرائقها وعمّمت على كل الشعر.

أما من حيث المضمون، فإن الشعر الجاهلي يتناول الواقع ويصوّره تصويراً دقيقاً، فيتحدث عن الصحراء وأهوالها وحيواناتها، ويصف الناقة والحصان والأسد والغول، كما يصوّر المعارك الدامية فيفتخر الشاعر ببطولات قومه ويهجو أعداءهم، وقد عبّر عن فرحه بالحياة فتغزّل بالمرأة وبجمالها ووصف الخمرة ومجّدها، كما ذهل عند حقيقة الموت، فبكى وتفجّع بالرثاء، ولم يفته أن يعبّر عن إعجابه بفضائل الأعمال فمدح العظماء والكرام من الناس والمقدمين منهم، وفي جميع الحالات لم يخل أن يصدر عن الجاهليين خواطر وحكم مستمدّة من

تجربتهم القاسية مع الحياة، وأهم حكمائهم زهير بن أبي سلمى.

الخلاصة:

إن طبيعة البلاد العربية الجافة الصحراوية، وجّهت البدوي إلى البحث الدائم عن الماء والغذاء، حتى صار ذلك هاجساً لا يفارقه، فإذا دعا قال: «سقياً ورعياً»، وإذا مدح شبّه ممدوحه بالغيث أو الندى، وإذا ذكر الفتوّة شبّهها بالماء فقال ماء الشباب. وقد ذهب إلى أبعد من ذلك بسبب حاجته إلى الماء، فتولّدت لديه عقيدة ظمأ الميت في قبره ما لم يؤخذ بثأره، فإنه يظل مضطرباً على زعمهم فيخرج طير يسمّى الهامة من رأسه فيصيح «اسقوني اسقوني» ولا يسكت حتى يؤخذ بثأر القتيل، يقول طرفة:

كريم يروي نفسه في حياته
ستعلم إن متنا صدى أينا الصدي

أما الصراع الدائم فقد نشأ عنه حياة مضطربة حيث استحكمت الروح العدائية بين الناس، مما اقتضى أن تمجّد عادات معيّنة صارت فضائل عندهم لا يشرّف المرء إلّا بها كالشجاعة والدفاع عن الحياض والثأر، ولطالما فاخروا بها باعتبارها من مآثرهم، ومدحوا من يحمل هذه الصفات وهجوا من يفتقدها.

كما أثّر التنقّل الدائم في توجيه أشعارهم، ومضامينها، لما يشكله من صدمات نفسية للمحبّين والعشّاق إذ ترحل الحبيبة، فيقف العاشق على أطلالها ذاكراً باكياً متغزّلاً، وأول من فعل ذلك امرؤ القيس في مطلع معلقته:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ
بسقطِ اللوى بين الدخول فحوملِ

وعلى العموم، فإن الشعر الجاهلي كان ابن بيئته صادقاً في نقل الواقع كما هو دون زيف، فجاءت ألفاظه خشنة كخشونة الصحراء، أفكاره متقطّعة كتقطّع إقامة البدوي، بعيداً عن العمق والتحليل بسبب الأمّية والجهل والبعد عن المعارف العقلية، وإذا أراد أن يقارن فإنه يلجأ إلى الصور الحسية في التشبيه. والقصيدة الجاهلية عموماً تميّزت بنظام، تعدّدت فيها الأغراض فجاءت على نسق: غزل وصف للناقة مدح وفخر وهجاء.. ومع هذا التعدّد فإن أفكارها تتسم بالإيجاز، الذي يرد هو بدوره إلى ظاهرة الأمّية، فكانت الحاجة ماسّة إلى الحفظ فكان الاختصار تسهيلاً للحفظ.

الفصل الثاني

صدر الإسلام

العصر الإسلامي

المقصود بعصر صدر الإسلام، على الأغلب، الفترة التي تشمل عهد النبي ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين، وبذلك ينتهي هذا العصر سنة ٤٠ للهجرة حيث يبدأ العصر الأموي.

أُمر النبي ﷺ بتبليغ الدعوة عندما بلغ الأربعين من العمر، وظلّ الوحي ينزل عليه بالقرآن مدّة ثلاث وعشرين سنة، أمضى منها ثلاث عشرة سنة في مكّة المكرّمة، وعشر سنوات في المدينة المنوّرة وكان اسمها يثرب قبل هجرة النبي ﷺ إليها. ثمّ توفي عليه الصلاة والسلام وله من العمر ثلاث وستون سنة ودفن في المدينة المنوّرة في حجر عائشة رضي الله عنها، بعد أن بلّغ رسالة ربّه وأدّى الأمانة كما أمر. وقد تولّى أمر المسلمين، من بعده أربعة من الخلفاء الفضلاء وهم: أبو بكر الصدّيق، وعمر بن الخطّاب، وعثمان بن عفّان، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين. وعرف عهدهم بالعهد الراشدي، وقد سار هؤلاء على سنّة النبي ﷺ، فثبّتوا أركان الحكم، وتابعوا نشر الدعوة وطبّقوا أحكام الإسلام ونظّموا شؤون الدولة،

المالية والإدارية والقضائية والعسكرية، كما جمعوا القرآن الكريم ودوّنوه في المصاحف وشجّعوا على حفظه وتلاوته وتفسيره.

القرآن الكريم:

هو كلام الله الذي أنزله الله وحياً على النبي محمد ﷺ، وقد استغرق نزوله ثلاثاً وعشرين سنة، وكان ينزل على شكل آيات وسور، ونزل أكثره في مكّة المكرّمة فسمّي المكّي، أما ما نزل في المدينة فسمّي المدني، وكان عليه الصلاة والسلام قد اتخذ كتّاباً للوحي منهم زيد بن ثابت ومعاذ بن جبل وعلي بن أبي طالب وغيرهم، أما جمع الكتاب فقد تمّ في عهد الخليفة عثمان بن عفّان.

وتضمّن القرآن الأحكام التي تحدّد العلاقات العامة في المجتمع الإسلامي من خلال ما سمّي آيات التشريع، كما حدّدت آيات أخرى الأعمال التي كلّف بها المسلم من أوامر ونواهٍ، بالإضافة إلى العبادات وأحكامها كأحكام الصلاة وشروطها وأركانها والصيام وفروضه وغير ذلك من أحكام العبادات.

ويدعو القرآن الكريم إلى برّ الوالدين وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كذلك دعا إلى الامتناع عن الخمرة والزنا وحرّم لحم الخنزير، بالإضافة إلى طائفة كبرى من الأوامر والنواهي. ولم يقتصر الأمر والنهي على ذلك، بل تعدّاه ليحدّد علاقات الأفراد، بعضهم ببعض، كي يسود الأمن والسلام والمحبة والإلفة بين الناس، فيأخذ كلٌ حقّه ويرضى بما أعطاه الله، فهنالك طائفة من الآيات تحدّد أحكام الزواج والطلاق، والميراث والبيع والشراء والآداب العامة في المآكل والمشارب، والجلوس والحديث، وباختصار لم يترك هذا الكتاب أمراً إلاّ وأشار إليه أو بينّ وفصّل. أما النوع الأخير من

الآيات وكان من حقّه أن نقدّمه على كل ما سلف، فهو ما يتعلّق بالعقائد والإيمان، فقد دعا القرآن إلى نبذ عبادة الأوثان والأصنام وكل ما لا يضر ولا ينفع وأرشد إلى عبادة الله الواحد الخالق القهّار.

وهكذا نجد في القرآن الكريم ما نحتاجه من أجل الوصول إلى سعادة حقيقية في الدنيا والآخرة، فحبذا لو تبصّر المتبصّرون فيه وتدبّروا آياته، ولو فعلوا لوفّروا على البشرية عناء البحث والتفكير فيما يصلح لأمور دنياهم.

لغة القرآن ومنهجه:

نزل القرآن بلسان عربي مبين وبلغة قريش الحجازية، وفيه من ضروب الفصاحة والبلاغة ما لا أستطيع أن أصفه في هذه العجالة، فهو كلام الله الذي تحدّى فيه أن يأتي الخلق بمثله! وأنّى يكون لهم ذلك؟! هذا الأمر دفع الأدباء ومنذ صدر الإسلام حتى يومنا هذا، إلى البحث المستمر، والتنقيب الدائم عن وجوه الإعجاز في هذا الكتاب العظيم، وكلما توغّلوا في الدرس، كلّما اكتشفوا أموراً جديدة، فمن الأمثلة البلاغية فيه كثرة أساليب التشبيه والتمثيل، والمجاز والاستعارة والكناية، وغير ذلك. أما العبارة فإنها تطول وتقصر حسب المعنى المراد، وإنّ القارىء ليحسب ذلك سجعاً وهو ليس كذلك.

وأخيراً لا بدّ من التمييز بين نوعين من الآيات الكريمة: آيات محكمة وهي التي لا تحتمل التأويل ومعناها ظاهر واضح، لا خفاء فيه، أما المتشابهات، فلا يعلم تأويلها إلاّ الله تعالى والراسخون في العلم، فلا تؤخذ على ظاهرها.

والملحوظة الأخيرة، تتعلّق بالمدني والمكّي، فالآيات المدنية أكثرها

آيات تشريع وتفصيل للعبادات والمعاملات، لـذلك تخلو من أسلوب القوة والزجر والتأنيب، كـما هي الحال في الآيـات المكّيّة التي تتضمن ترغيباً وترهيباً وزجراً ووعيداً، واللهجة خطابيـة جدليـة بغية الإقنـاع العقلي، لذلك كانت آيات كثيرة قصيرة وليس بطول المدنياتُ.

أثر الإسلام في الحياة العربية:

أحـدث الإسلام انقـلاباً جـذريـاً في المجـالات المختلفـة في بـلاد العرب سواء من النواحي السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية والعقلية. فعلى الصعيد السياسي عرفت بـلاد العرب شكـلاً متقدّمـاً من أشكال الحكم، فوجدت حكومة مركزية، ودولة قوية لها أنظمتهـا التي تعتمد على القرآن الكريم وتستمد منه الأحكام في الشؤون المختلفة، وهكذا عملت هذه الدَولة على ترسيخ أواصر العلاقات بـين المسلمين الـذين سـوّى الإسلام بينهم، فتهـذّمت بـذلـك المفـاهيم القبليـة والعصبيـة الدموية، وتحوّلت القبائل المتنافرة إلى أمّة انفتحت على الأمم الأخـرى وانصهرت في رابطة دينية واحدة عنوانها «إنما المؤمنون إخوة».

وعـلى الصعيد الـديني، انصرف الناس كليّـاً عن عبـادة الأوثـان، وعبدوا الله الواحد، وآمن المؤمنون بالبعث بعد الموت، وبالحساب مما جعلهم يحاسبون أنفسهم فتجنّبوا الشرور، ومالوا إلى فعل الخير طمعاً في مرضاة الله تعالى، هذا الإيمان فتح المجـال إلى تغييرات هـامة عـلى الصعيـدين النفسي والأخلاقي. فعـلى الصعيد النفسي، صـار المسلم ينظر إلى الحياة نظرة ملؤها التفـاؤل، كما ينظر بعين الـوعي والعقل لا بمنظار التوهم والتخيّل. لذلـك انصقلت الشخصية العـربية وتهـذّبت بفضـل الاسلام، فصـار الناس يـتراحمون ويتـوادّون، وأحلّوا السلام محل الحرب، والمودّة محل الضغينـة، والتسامـح محل الحقـد، وابتعدوا عن المفاخرات بالأحساب والأنسـاب، وباختصـار تحوّل المجتمـع من

مجتمع العنجهية إلى مجتمع الرحمة، وصار المسلم يرعى حقوق أخيه المسلم في حضرته أو في غيبته، وخضع الجميع لأحكام الشريعة في التقاضي بدلاً من الاحتكام إلى قانون الثأر والقتل العشوائي، فلم تعد الشجاعة تعني الشيء نفسه، فقد حملت معاني جديدة تتلاءم مع مبادىء الدين، والنجدة أيضاً ليست مطلقة بمعنى مناصرة الظالم، بل العكس هو الصحيح، الإسلام دعا إلى نصرة المظلوم لا العكس ولو كان من ذوي القربى، ومن هنا، يتبيّن انقلاب المعايير الأخلاقية ممّا يفسِّر ادعاءنا بأن تغييراً أخلاقياً جذرياً قد حصل بالفعل.

وكما غيّر الاسلام الحياة السياسية والدينية، كذلك أحدث تغييرات عظيمة وعميقة في البنية الاجتماعية: فأزال الفوارق بين الناس على قاعدة إن التفاضل بين البشر لا يكون على أساس اللّون أو الأصل أو الجنس بل تطبيقاً للحديث الشريف: «لا فضل لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى»[1]، وانطلاقاً من هنا زال كل ما كان ينغص على المرء، فالله تعالى ساوى بين الجميع في التكليف وأمور العبادة وفي الثواب والعقاب، فلا يتقدّم واحد على الآخر إلاّ إذا تقدّم عليه بالطاعات والأعمال الصالحة. إذاً قدّم الإسلام نموذجاً، نراه الأكثر تقدّماً، في تحديد العلاقات الاجتماعيّة والتي تحفظ للإنسان كرامته وحريّته وماله وحقوقه، في ظلّ رعاية الدولة من جهة، وفي ظلّ احترام الآخرين له ولحقوقه كافة، ولم يستثنِ من هذه القاعدة أصحاب الملل الأخرى كالنصارى واليهود، فقد تكفّل لهم الإسلام بالحماية والرعاية أيضاً.

ومن أجل ضمان الأمن الاجتماعي، اهتمّ الإسلام بالناحية الاقتصادية للفرد، فنال كلّ نصيبه من أموال الغنائم وغيرها مما كان يردّ إلى بيت المال، فعاش الناس في بحبوحة ورفاه مما أتاح لهم أن

(١) رواه أحمد: ٥/٤١١.

يتحضّروا ويقتنوا الجواري والغلمان، ويشيّدوا القصور ويستمتعوا بمباهج الحياة، كل ذلك أسهم في ترقية الذوق والعقل العربيين، فصار أقرب إلى الأخذ بأسباب الرقي والتطوّر، فأخذوا عن الأمم الأخرى ما ينفعهم من علوم وأعملوا عقولهم للإفادة منها ومن مناهج واضعيها، وقد شجّع الإسلام على طلب العلم، وحضّ على التأمل، بل جعل النبي ﷺ العلم فريضة في قوله: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[1].

ترك كل ذلك أثره في الأدب، ولكن الأثر الأكبر يبقى للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

أمّا القرآن، فقد أسهم في أن جعل من لغة قريش لغة رسمية عليا تتقدّم على سواها، فصارت بالتالي لغة الشعر والأدب والتأليف، حتى صارت تستخدم لاحقاً في كل بلاد الإسلام، خصوصاً وأنها توسّعت لتتضمّن كلمات لم تكن معروفة في الجاهلية، كلمات ترتبط بواقع الحياة الإسلامية الجديدة، كالإيمان والبعث والنشور والصوم والجنّة والنار وما سوى ذلك، ولا نقصد هنا أن كل هذه الكلمات لم تكن ذات أصل، بل أردنا أن نشير إلى تغير الدلالة فحسب. والقرآن، كان ولم يزل، محور اهتمام الباحثين والعلماء، فنشأت علوم غايتها التقريب النحوي والصرفي من أجل فهم القرآن، وكذلك علم الفقه والتفسير والمعجمات... وقد أثّر القرآن في الآداب، فلجأ الرواة إلى جمع أشعار العرب القديمة واستعانوا بها في تفسير ما كان يستغلق على أفهامهم من مفردات قرآنية، كما شجع القرآن بما فيه من إعجاز على ظهور مؤلفات كثيرة تبحث في وجوه بلاغته فضلاً عن لجوء أهل

---

(١) ابن ماجة: مقدمة ١٧

الخطابة وأهل الفصاحة، فيما يقولون ويكتبون إلى هذا المنهل العظيم ليستشهدوا بآياته وبإعجازه.

الحديث النبوي:

هو ما أثر عن النبي ﷺ من أقوال، أو أفعال، وكان عليه الصلاة والسلام أفصح العرب، فلا غرو أن تكون أحاديثه منهلاً، يتوجّه إليه المتعلّمون والباحثون ليستفيدوا من أسلوبه وألفاظه، فضلاً عما نشأ حوله من مؤلّفات تناولته جمعاً وشرحاً وتصنيفاً فنشأت موسوعات ضخمة، سمّي بعضها بالصحيح كصحيح مسلم، وصحيح البخاري وهما من أشهر كتب الحديث.

موقف الإسلام من الشعر والشعراء:

بلغ الشعر في الجاهلية منزلة عظيمة، واحتلّ الشعراء المكانة العالية، لأنّ الشاعر كان لسان قبيلته يذود عنها بلسانه كما كان يدافع عنها بسيفه، واشتهرت فنون معيّنة لوجود ما يمهّد لها كالهجاء والفخر اللذين ارتبطا بالصراعات القبلية، وكان البيت من الشعر يرفع قوماً ويخفض آخرين، وقد يكون سبباً لإشعال حرب ضروس. كما ازدهر الغزل الإباحي كما نرى في معلقة امرىء القيس وغيره، والتغزل بالخمرة كما فعل الأعشى.

هذه الفنون، تراجعت تراجعاً ملحوظاً في الإسلام لأسباب عديدة منها ما ورد أولاً في القرآن الكريم حول الشعر والشعراء وخصوصاً الكاذبين منهم، قال[1] تعالى: ﴿الشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾. وقال تعالى:[2]

(١) سورة الشعراء: آية ٢٢٤. (٢) سورة يس: آية ٦٩.

﴿وما علّمناه الشعر وما ينبغي له إنْ هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾، ففي الآية الأولى ذمٌ الله تعالى الشعراء لما كانوا يفعلونه من المفاسد ويقولونه من الكذب والبهتان، وفي الثانية يردّ الله تعالى على الكفّار الذين كانوا يزعمون بأن النبي ﷺ ما هو إلاّ شاعر، فالنبي ليس بشاعر ولا يقول الشعر، والذي أنزل إليه هو القرآن. من هنا انصرف كثير من الشعراء عن قول الشعر ترفّعاً، وعمدوا إلى ما هو أولى وعَنيت القرآن، فانصرفوا إلى تعلّم القرآن وحفظه وإلى العبادة والدعوة إلى الله، بدلاً من الخوض في مفاخرات ومساجلات نهى عنها الإسلام.

ولكن هل حرّم الإسلام الشعر؟ الجواب لا، لم يحرّم إطلاقاً، إنما النهي عن الكذبِ والافتراء والشتم والسب، سواء في الشعر أم في غيره، أما ما كان صادقاً منه، بعيداً عن فاحش القول، فلا ضير فيه.

وعلى العموم فإنّ الشعر استمرّ في هذا العصر، أقل ممّا كان عليه في الجاهلية خصوصاً في الهجاء والغزل والخمرة، وكذلك المديح الكاذب، تحوّل إلى مدح صادق وأكثره في مدح النبي ﷺ، أو في مدح الصحابة من الخلفاء الراشدين. والفخر تحوّل من فخر ذاتي أو قبلي إلى فخر جماعي بالمسلمين ومآثرهم، والغزل بقي منه الغزل العفيف وغالباً ما كان في افتتاحيات القصائد على الطريقة الجاهلية. ونتوقّف قليلاً عند الهجاء، إذ برزت طائفة من الكفّار تهجو النبي ﷺ هو والمسلمين، فأمر عليه الصلاة والسلام شاعره وصاحبه حسّان بن ثابت الأنصاري أن يردّ عليهم ويهجوهم ففعل هو وعبد الله بن رواحة وغيرهما، ولكنّهما لم يتناولا الأعراض ولم يفحشا في القول.

وممّا يذكر أنّ فئة من الشعراء لم تتخلّ كليّاً عن الجاهلية، فأسلم هؤلاء لكنّهم استمرّوا في الهجاء فأقذعوا كالحطيئة، وتغزّل بعضهم بالخمرة وشربها مثل أبي محجن الثقفي الذي سجنه سعد بن أبي وقّاص في القادسية. والحطيئة كان سجنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولم يطلقه إلاّ بعد أن تعهّد بعدم النيل من أعراض المسلمين.

ومن الناحية الفنيّة فإنّ الشعر في هذه المرحلة، كان لا يختلف كثيراً عمّا كان عليه في الجاهلية، من حيث تعدّد الأغراض في القصيدة الواحدة، وافتتاحها بالغزل، والخشونة في كثير من الألفاظ، مع تسجيل تحوّل كبير في المعاني، إذ ذخر هذا الشعر بالمعاني المستمدّة من البيئة الإسلامية الجديدة.

الفصل الثالث

النابغة الجعدي[1]

نسبه، مولده، سيرته، وفاته

نسبه:

اختلف العلماء والمترجمون في اسم النابغة، فقيل هو عبد الله بن قيس بن جعدة بن كعب بن ربيعة، وقال آخرون هو قيس بن عبد الله، وذهب غيرهم إلى القول: هو حبّان بن قيس، واتفقوا في بقية اسمه ونسبه. وكنيته أبو ليلى، ولا ندري سبب هذه الكنية، فلم يرد في المصادر التي ترجمت له أن له بنتاً اسمها ليلى، ولو أنّ بعضها أشار إلى ابن له ولم يذكر اسمه. إلاّ أن ابن سلام أخبر[2] عن ابن دأب بأن مروان بن الحكم وكان والياً على المدينة المنوّرة قد أخذ ابن

---

(١) انظر في ترجمته: الأغاني: ٥/١، أسد الغابة: ٥/٢، خزانة الأدب: ٥١٢/١، الإصابة: ٢١٨/٦، وقد رجع أصحاب المصادر المذكورة أن اسمه حبّان بن قيس. أما المصادر التي رجحت بأنّ اسمه قيس فهي: معجم الشعراء للمرزباني: ١٩٥. طبقات فحول الشعراء: ٥٣. أما في الشعر والشعراء: ١٧٧ فهو عبد الله بن قيس. وفي كتاب المعمرين: هو قيس بن عبد الله.

(٢) طبقات فحول الشعراء: ٥٥.

النابغة وإبله، لأنه كان علوي الرّأي، فمدحه على أثر ذلك بأبيات، شكَّك ابن سلام في بعضها وممّا رواه:

فإن يأخذوا مالي وأهلي لظُنّةٍ
فإني لحرّاب الرجالِ محرّبُ[1]

وذهب غيره[2] إلى أن ابنه يسمّى محارباً وقد ذكره في قوله:

ألم تعلمي أني رزئت محارباً فما لك منه اليوم شيء ولا ليا

ولكنه لم يكنْ به.

أما والدته فهي فاخرة بنت عمرو بن شِحنة الأسدي. أما خبر زواجه فأفاد ابن سلام بأنه تزوّج امرأة من بني المجنون ولكنها نازعته وادّعت الطلاق، وصار يراها في منامه. فقال فيها أبياتاً يهجوها منها[3]:

مالي ولابنة المجنون تطرقني بالليل إن نهاري منك يكفيني

والنّابغة لقب له لأنه أقام مدّة لا يقول الشعر ثمّ نبغ فقاله[1]، وممّا ذكره صاحب الأغاني في هذا المجال أن الجعدي «قال الشعر في الجاهلية ثم أجبل دهراً، ثم نبغ بعدُ في الشعر في الإسلام»[4].

نشأته وسيرته:

ولد النابغة في الفَلَج جنوبي نجد، وليس هنالك ما يدلّنا على تاريخ ولادته بالضبط، ولكن المصادر التي تحدّثت عن سيرته تجمع أنه

---

(١) طبقات فحول الشعراء: ٥٥.
(٢) شرح الحماسة للمرزوقي: ١٠٦١.
(٣) طبقات فحول الشعراء: ٥٥.
(٤) الأغاني: ٥/٥.

كان معمراً. نقل[1] صاحب الأغاني عن القحذمي: «كان الجعدي أسن من نابغة بني ذبيان»، ومما يدل على ذلك أنه عاصر المنذر بن المحرّق، من قبل النعمان بن المنذر، الذي مدحه النابغة الذبياني، ولكن الذبياني مات قبل الجعدي ولم يدرك الإسلام. قال[2] الجعدي:

تذكّرت شيئاً قد مضى لسبيله
ومن عادة المحزون أن يتذكرا
ندامايَ عند المنذر بن محرّق
أرى اليومَ منهم ظاهرَ الأرض مقفرا
كهولٌ وفتيانٌ كأنّ وجوههم
دنانيرُ مما شِيفَ في أرضهم قيصر

وتشير بعض الروايات[3] إلى أنه عاش مائة وثمانين سنة، ألا وهو القائل:

لبستُ أناساً فأفنيتهم — وأفنيت بعد أناس أُناسا
ثلاثةُ أهلين أفنيتُهم — وكان الإله هو المُستآسا

ولا يستغرب أبو الفرج ذلك ولا يستنكره لأنه - أي الجعدي - «قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه إنه أفنى ثلاثة قرون، كل قرن ستون سنة، فهذه مائة وثمانون[4]». فإذا كان النعمان توفي سنة ١٥ ق. هـ، وكان النابغة نديماً لوالده المنذر، يعني ذلك أنه كان رجلاً ناضجاً أيام المنذر بن المحرّق، مما يجعلني أميل إلى القول بأنه عاش

(١) الأغاني: ٥/٥.
(٢) الأغاني: ٥/٦.
(٣) الأغاني: ٥/٦.
(٤) الأغاني: ٥/٧.

أكثر من مائة سنة، لا سيّما وأنه مات في أصبهان سنة ٦٥ هـ . ومما قاله[1]، وفيه إثبات إلى ما نذهب إليه:

ألا زعمت بنو سعدٍ بأني ـ ألا كذبوا ـ كبيرُ السن فاني
أتت مائة لعامَ ولدتُ فيه وعشرٌ بعد ذاك وحجّتانِ

وهكذا يكون قد عاصر ملكين قبل الهجرة النبويّة، ثم كانت له صحبة مع النبي ﷺ، وعاصر من بعده الخلفاء الأربعة ومعاوية وابنه يزيد، كما قدم على عبد الله بن الزبير وهو بمكّة وكان قد دعا لنفسه فاستماحه ومدحه.

أما وفادته على النبي ﷺ، وإسلامه فكان ذلك سنة ٩ للهجرة، حيث قدم على رأس وفد من قومه، إلى النبي ﷺ فأسلم وحسُن إسلامه، وأنشد بين يدي النبي ﷺ أبياتاً منها قوله[2]:

بلغنا السماءَ مجدُنا وجدودُنا وإنا لنبغي فوق ذلك مظهرا

فقال النبي ﷺ: «فأين المظهر يا أبا ليلى»، فقال: الجنّة، فقال النبي ﷺ: «قل إن شاء الله»، فقال: إن شاء الله وتابع الأبيات:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له
بوادر تحمي صفوَه أن يُكدّرا
ولا خيرَ في جهلٍ إذا لم يكن له
حليمٌ إذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال النبي ﷺ: «أجدتَ لا يُفضضِ الله فاك»، وقد عاش بعد ذلك ما عاش وحتى وفاته ولم ينفض من فيه سن!

(١) الأغاني: ٥/٦.
(٢) الأغاني: ٥/٨.

وممّا يذكر هنا أنّ النابغة كان في الجاهلية ممّن يتفكّرون ويتأمّلون، فأنكر الخمر والسُّكر وما يفعل بالعقل، وهجر الأزلام والأوثان، وقال[1] في الجاهلية كلمته التي أولها:

الحمد لله لا شريك له   من لم يُقلها فنفسه ظلما

كما كان يذكر دين إبراهيم والحنيفية، ويصوم ويستغفر ويتوقّى أشياء لعواقبها.

ويبدو من خلال أخباره أنه لم يعد مع قومه حين رجعوا إلى منازلهم، لكنّه أقام في المدينة المنوّرة، وكانت له أخبار مع علي رضي الله عنه فشهد صفين معه وشهد فتح بلاد فارس. ومن أخباره[2] مع عثمان رضي الله عنه، أنه دخل عليه يوماً يستأذنه مودّعاً فسأله عثمان عن وجهته؟ فقال: «ألحقُ بإبلي فأشرب من ألبانها فإني منكر لنفسي». فقال له عثمان: «أتعرباً بعد الهجرة يا أبا ليلى! أما علمت أن ذلك مكروه؟!» قال: «ما علمته وما كنت لأخرج حتى أعلمك». فأذن له وأجّل له أجلاً.

شاعريته:

لقد عاصر النابغة الجعدي عدداً كبيراً من الشعراء، في جاهليته وفي إسلامه. وقد ذكر[3] ابن سلام أن الجعدي كان قديماً شاعراً طويلاً مُفلقاً طويل البقاء في الجاهلية والإسلام، إلاّ أنّه صنّفه في شعراء الطبقة الثالثة كأبي ذؤيب الهذلي ولبيد والشماخ. كما أفاد

---

(١) الأغاني: ٩/٥.

(٢) الخبر بكامله في الأغاني: ٥/١٠.

(٣) الأغاني: ٥/٥، وطبقات فحول الشعراء: ٥٣.

الأصفهاني عن ابن الأعرابي أنه قال[1]: «أقام النابغة الجعدي ثلاثين سنة لا يتكلّم، ثم تكلّم بالشعر»، فلذلك اعتبروه نابغةً!

وقال[2] أبو زيد عمر بن شبّة في خبره: «كان النابغة شاعراً متقدّماً وكان مغلَّباً (أي مغلوباً) ما هاجى قطّ إلّا غُلب، هاجى أوس بن مَغراء، وليلى الأخيلية، وكعب بن جعَيل فغلبوه جميعاً». وليس في هذا الكلام ما يغض من منزلة النابغة ولكنّه يدلّ بنظرنا على أمرين، الأول أنّه كان بعيداً عن التكلّف، والثاني تعفّفه وترفّعه عن فاحش القول. ولسوف نتبينّ ذلك في الفصل التالي. أما الأصمعي فإنه نقل عن الفرزدق أنّه قال[3] عن الجعدي النابغة: «كان صاحب خُلقان عنده مُطرَفٌ بألفٍ، وخِمارٌ بواف». وأراد أنَّ في شعره الساقط الرديء والجيِّد الرفيع.

ومهما تعدّدت الأقول والآراء، فحسب النابغة الجعدي ما قاله له النبي ﷺ - كما مرَّ - «أجدتَ لا يفضُضِ الله فاكَ».

---

(١) الأغاني: ٥/٥.

(٢) الأغاني: ٥/١٠.

(٣) الأغاني: ٥/٢٨. والخمار: غطاء لرأس المرأة، بواف أي بدرهم وثلث.

الفصل الرابع

أغراضه الشعرية

النابغة الجعدي، باعتباره شاعراً مخضرماً، فإنه نظم في الفنون الشعرية المختلفة وجمع بين منهجين مختلفين: منهج الجاهليين بما فيه من قوّة وجزالة وصور بدوية وواقعية، إضافة إلى منهج متأثر بتعاليم الإسلام، ويعتمد البساطة والوضوح، فضلاً عن المعاني السامية التي استفادها الشعراء من القرآن الكريم ومن التعاليم والأحكام الشرعية، فلا غرابة إذاً أن يترك ديواناً شعرياً تضمّن مقطوعات وقصائد في مختلف الفنون، وقد ذكر ابن النديم أن ديوان النابغة الجعدي من عمل الأصمعي وابن السِّكِّيت، ولكن هذا العمل لم يُعثر عليه حتى الآن، وكل ما بين أيدينا من شعر النابغة هو ما جمعته الآنسة ماريا نالينو الإيطالية وطبعته في روما سنة ١٩٥٣ رومية، وقد اعتمدت في دراسة الأغراض الشعرية على المجموع المشار إليه، وعلى ما أوردته المصادر التي أوردت أخبار النابغة وشيئاً من شعره.

المدح:

لما كان المدح هو فن التعبير عن عاطفة الإعجاب بشخصية الممدوح، ولما كان هذا الفن قديماً قدم الشعر عند العرب، ونظراً لتقلُّب الأحوال الاجتماعية بسبب الحياة القبلية التي كانت تقوم على

الغزو والقتل والسلب، فإن الشعراء جنحوا بالمديح عن هدفه الذي وجد من أجله في الأصل، فصار بعضهم يمدح بُغيةَ التكسُّب المادي، فتقرَّبوا من الملوك والأثرياء وذوي السلطة ومدحوهم بما فيهم من المآثر أوليس فيهم، فأجزلوا المال للشعراء وأكرموهم. ولم يكن النابغة الجعدي بعيداً عما وصفنا، فهو شاعر مفلق بدوي، سلك طريق غيره فيمّم شطر الحيرة ليمدح ملوكها اللخميّين كما صرَّح هو نفسه بذلك، حيث تذكَّر تلك الأيام، والندامى عند المنذر بن محرِّق فقال[1]:

تذكّرتُ والذكرى تهيجُ لذي الهوى
ومن حاجةِ المحزونِ أن يتذكّرا

نداماي عند المنذرِ بن مُحرِّقٍ
أرى اليومَ منهم ظاهرَ الأرضِ مُقفرا

ويبدو أنه وصل إلى نجران، في سعيه ودأبه، فيذكر ملكاً كريماً، وقد ورث المجد من جهة أخواله من آل جفنة قال[2]:

وما زلتُ أسعى بين باب ودارةٍ
بنجرانَ حتى خفتُ أن أتنصّرا

لدى مَلِكٍ من آل جفنة خالُه
وجدّاه من آل امرىء القيس أزهرا

يُدير علينا كأسَه وشِواءَه
مناصِفُه والحضرميَّ المحبَّرا[3]

---

(١) ديوانه: ٦١. وص ٧٠.

(٢) الديوان: ٦١. وآل جفنة هم ملوك الغساسنة.

(٣) الحضرمي: نسبة إلى حضرموت وهو الثوب.

وتراه بعد البعثة النبوية، يتوجّه مع قومه معلناً إسلامه بين يدي النبي ﷺ، ويقول فيه أبياتاً يمدحه فيها، تنمّ عن ذوق رفيع، وفهم ثاقب، فأعجب النبي ﷺ منطقُه، وحكمته التي تدلّ على صفاء ذهن، وسلامة فطرة، ورقّة في الإحساس، فضلاً عن أنها لا تصدر إلّا عن رجل خبير مجرِّب، قال[1]:

بلغنا السماءَ مجدُنا وجدودُنا ... وإنّا لنبغي فوق ذلك مظهرا

ولما بلغ قوله:

ولا خيرَ في حلمٍ إذا لم يكن له ... بوادرُ تحمي صفوه أنْ يكدّرا

ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له ... حليمٌ إذا ما أورد الأمر أصدرا

ففي الحلم خيرٌ من أمورٍ كثيرةٍ ... وفي الجهلِ أحياناً إذا ما تعذّرا

كذاك لعمري الدهرُ يومان فاعرفوا ... شرورٌ وخيرٌ لا بلِ الشرُّ أكثرا

دعا له النبي، كما مرَّ سابقاً[2]، وأثنى على حسن كلامه.

وأغلب الظن، أن القصيدة الرّائية هذه، أضاف إليها، فيما بعد، أبياتاً أخرى، وذلك واضح من خلال التفكّك في أفكارها، حيث لا نجد رابطاً يجمع بين أجزائها، فضلاً عن تعدُّد موضوعاتها، من مدح وفخر وهجاء: قال[3] بعد إسلامه يصوّر جهاده في سبيل الله، وخوفه

---

(١) الأغاني: ٥/٩. والديوان: ٦١.

(٢) ص ٣٤ من هذا الكتاب.

(٣) الأغاني: ٥/٩.

من الله تعالى وحرصه على رضائه:

أتيتُ رسولَ الله إذ جاء بالهدى
ويتلو كتاباً كالمجرّة نيّرا
وجاهدت حتى ما أحسّ ومن معي
سهيلاً إذا ما لاح ثُمّت غوّرا
أقيمُ على التقوى وأرضى بفعلها
وكنتُ من النار المخوفةِ أوْجرا[1]

ومما يدعونا إلى الاعتقاد بأن القصيدة لم تنظم دفعة واحدة، اختلاف الروايات، ففي المجموع الذي بين أيدينا ثلاث روايات تختلف الواحدة عن الأخرى من حيث عدد الأبيات، وكذلك في التقديم والتأخير.

وقد رجّح[2] ابن السبكي عن ابن عبد البر، بأن النابغة قد أنشد القصيدة كلّها لرسول الله ﷺ وأورد منها أربعة وعشرين بيتاً، بينما يميل[3] الدكتور شوقي ضيف إلى ما ذكرناه أولاً، لأن بعض روايات القصيدة أكثر من ذلك بكثير، ويصل عدد أبياتها إلى مائة وعشرين.

ويقضي النابغة فترة يجاهد في سبيل الله، في بلاد فارس وغيرها، ثم يعود إلى المدينة ومنها إلى البادية، ثم يعود، فينفجر الصراع بين علي بن أبي طالب ومعاوية، فيقف إلى جانب علي رضي الله عنه

---

(١) أوجر: خائف.
(٢) الطبقات: ١/ ١٣٠.
(٣) العصر الإسلامي: ١٠١.

فينتظم في صفوف جيشه ويقاتل معه، ويمدحه ويهجو خصومه فقال[1] يوماً:

قد علم المصرانِ والعراقُ ... أنّ عليّاً فحلُها العُتاقُ[2]
أبيض جحجاح له رواق ... وأمه غالى بها الصُداقُ[3]
أكرمُ من شُدّ به نِطاقُ ... إنّ الأُلى جارَوك لا أفاقوا
لهم سياقٌ ولكم سياق ... قد علمتْ ذلكم الرِّفاق
سُقتم إلى نهج الهدى وساقوا ... إلى التي ليس لها عِراقُ[4]
في ملّةٍ عادتُها النفاقُ

وفي مدحه لعلي رضي الله عنه، قد عرّض بمعاوية واتهمه هو وجماعته بالنفاق وأنهم يسيرون على غير هدى، بينما يمثّل الإمام علي الرجل الصالح الكريم، الذي لا يُجارى ولن يبلغ أعداؤه مرتبته، ولكن هذه المفاضلة أثارت على الشاعر الجعدي نقمة معاوية فأسرّها له، وكتب إلى مروان بن الحكم أن يأخذ مال الجعدي وأهله، وتريّث حتى قدم معاوية إلى الكوفة، فمثل بين يديه وأنشده:

ألم تأتِ أهل المشرقين رسالتي ... وأيُّ نصيح لا يبيت على عتْبِ
ملكتم فكان الشرُّ آخرَ عهدِكم ... لئن لم تداركْكم حلومُ بني حربِ

---

(١) الأغاني: ٥/٣١. والديوان: ١٩٢.
(٢) المصران: الكوفة والبصرة: العُتاق: الكريم.
(٣) الجحجاج: السيد.
(٤) ليس لها عراق: ليس لها غاية.

ثم يتهدّد ويتوعّد إذا لم يردّ عليه ماله وأهله، بأنّه سيغضب وينتقم لأنهم ظلموه فقال[1]:

صبورٌ على ما يكرهُ المرءُ كله
سوى الظلمِ إني إنْ ظلمتُ ساغضبُ

فالتفت معاوية حينئذٍ إلى مروان فقال: «ما ترى؟ قال: أرى ألاّ ترد عليه شيئاً». ولكن معاوية خشي، إنْ لم يردّ عليه ماله وأهله أن يهجوه بكلام تتحدث فيه العرب، فأمر بأن يردّ عليه كل ما أخذ منه.

ومن الذين اتصل بهم من أهل الحكم والرياسة عبد الله بن الزبير، عندما أجدبت البادية وأقحمته السّنة فدخل على ابن الزبير المسجد الحرام فأنشده قوله[2]:

حكيتَ لنا الصّدّيقَ لما وليتنا
وعثمانَ والفاروقَ فارتاح مُعدِمُ
وسوَّيتَ بين الناس في الحقِّ فاستووا
فعاد صباحاً حالكُ الليلِ مظلمُ
أتاك أبو ليلى يجوبُ به الدجى
دُجى الليل جوابُ الفلاة عثمثم[3]
لتجبر منه جانباً زعزعت به
صروفُ الليالي والزمان المصمّمُ

---

(١) الأبيات كلها وخبر معاوية في الأغاني ٥/٣١.

(٢) الأغاني: ٥/٢٨، ما عدا البيت الثاني فهو في الديوان: ٢٠٥. وتجدر الإشارة إلى أن عبد الله بن الزبير كان بويع له بالخلافة بعد وفاة معاوية وقد بايعته بلاد الحجاز واليمن ومصر والعراق وأجزاء كبرى من الشام.

(٣) عثمثم: جمل شديد طويل.

فقال[1] ابن الزبير: «هوّن عليك أبا ليلى، فإن الشعر أهون وسائلك عندنا. . . ولكن لك في مال الله حقّان: حقّ برؤيتك رسول الله ﷺ، وحق بشركتك أهل الإسلام في فيئهم»، ثم أخذ بيده فدخل به دار النَعم، فأعطاه قلائص سبعاً وجملاً رجيلاً[2]، وأوقر له الإبل بُرّاً وتمراً وثياباً فجعل النابغة يستعجل فيأكل الحب صرفاً. فقال ابن الزبير: «ويح أبي ليلي! لقد بلغ به الجهد». فقال النابغة: «أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما وَلِيَتْ قريش فعدلتْ، واستُرحمتْ فرحمتْ، وحدّثت فصدقتْ، ووعدت خيراً فأنجزت فأنا والنبيُّون فُرّاط القاصفين»[3].

ويتضح من خلال ما تقدُّم أنه يمدح بالمكارم الأخلاقية، المستمدة من الإسلام، فحين يمدح النبي ﷺ يشيد بما جاء به من الآيات البيِّنات، التي أضاءت للناس وأرشدتهم إلى طريق الخير، ولا غرو أنه يشبِّه الكتاب الكريم بالمجرّة تشبيهاً حسيّاً وعلى طريقة شعراء العصر من مخضرمين وغيرهم. وفي مدحه للإمام علي، يستعمل من المعاني البدوية، ما حضره بما يلائم المناسبة، ويعبر عن إعجابه بعاطفة صادقة حميمة، مبدياً انفعالاً وحماساً شديدين تأييداً للممدوح وتعريضاً بالخصوم. فالممدوح «كالفحل» الكريم، في الشدّة والحزم، وهو السيد المطاع الأبيض كريم الحسب والنسب، واليد واللسان، يسير على النهج السوي. وكذلك في مدحه لابن الزبير، فإنه يشبهه بمن سبقه من الخلفاء، أبي بكر وعثمان وعمر، ويشدِّد على العدل

---

(١) الخبر بكامله في الأغاني: ٥/٢٨ وما بعدها.

(٢) الجمل الرجل: القوي السريع. والقلائص: جمع القلوص: الناقة الشابة.

(٣) الفُرّاط: المتقدّمون إلى الشفاعة أو الحوض. القاصفون: المزدحمون. وقد أورد السيوطي الحديث في «الدر النثير».

والتسوية بين الناس، فلا بغي ولا ظلم، وهو يعرف كيف يستدرّ العطف ويثير النخوة في نفس الذي يخاطبه حين يذكر رحلته في الليل المظلم ويشير إلى معاناته وتعبه وإملاقه، ولا تخلو الأبيات من أثر البادية هي أيضاً، ويتجلّى ذلك بألفاظ البيتين الآخرين «جواب الفلاة عثمثم».

إذاً، يستمدّ الجعدي معانيه المدحية من بيئتين: من الجاهلية ومن الإسلام، حيث لا يناقض نفسه فيأخذ من البيئة الأولى ما أبقى عليه الإسلام من العادات التي تُعد في المآثر والفضائل.

الهجاء:

من الأغراض الشعرية التي أذكتها الحياة الجاهلية، بما فيها من منافرات وصراعات دموية، لم تكن لتتوقّف حتى بعث الله رسوله الكريم ﷺ. ارتبط الهجاء إذاً، وبالدرجة الأولى، بالعصبيات وحالات العداء المستحكمة، ولما زال أثر القبلية في الإسلام كان من الطبيعي أن تتراجع حدّة اللهجة السائدة بين المتخاصمين. والنابغة الجعدي، قد أدرك ذلك جيداً، لكنه لم يستطع أن يتخلّص تماماً من رواسب الماضي، سواء من ناحية ميوله العاطفية نحو بني قومه وارتباطه بهم ارتباطاً وثيقاً إلى حدّ التعصُّب، أو من ناحية الحِدّة في الطبع، وهي موروثة بدورها من حياة الصحراء والبادية.

فمن ذلك أن بعض أقاربه من بني عامر رعوا[1] زرعاً بالبصرة فبعث أبو موسى الأشعري[2] في طلبهم، فتصارخوا: يا آل عامر!!

---

(١) الأغاني: ٥/ ٣٠.

(٢) هو والي العراق.

فخرج النابغة ومعه عصبة له، فأتي به إلى أبي موسى، فسأله عن سبب خروجه فقال: «سمعت داعية قومي»، فضربه أسواطاً، فقال[1] النابغة يعرّض به ويهجوه:

رأيت البكرَ بكرَ بني ثمودٍ ... وأنت أراك بكرَ الأشعرينا
فإن يكن ابن عفّان أميناً ... فلم يبعثْ بك البَرَّ الأمينا
فيا قبرَ النبي وصاحبيه ... ألا يا غوثنا لو تسمعونا

وهو بنظره كالبكر، وليس من الأمانة في شيء، لذلك يستغيث بالنبي منه. ومع ماذكرته من طبيعته وتأثره بالجاهليين من الناحية العصبية، فإن الإسلام قد غيّر فيه الكثير، فما هاجى أحداً إلّا غُلب، وممن هاجاهم من الشعراء أوس بن مغراء، وليلى الأخيلية، وكعب بن جُعيل فغلبوه جميعاً.

أما خبره مع أوس بن مغراء فقد بدأ عندما أغار بسر بن أرطاة، وكان من قوّاد معاوية، على حيٍّ لبني سعد بالفَلَج بين ظهري بني جعدة، فقتل منهم وأسر فقال[2] أوس:

مُشرِّين تَرعون النجيل وقد غدت ... بأوصال قتلاكم كلابٌ مزاحمِ[3]

فقال[4] النابغة ردّاً عليه:

لعمرُ أبيك يا وبرَ بنَ أوس ... لقد أخزيتَ قومَك في الكلامِ
لقد أخزيتَهم خزياً مبيناً ... مقيماً ما أقام ابنا شمامِ[5]

---

(١) الأغاني: ٥/٣٠ والديوان: ٢١٠.
(٢) الأغاني: ٥/١١.
(٣) المشر: الذي بسط ثوبه في الشمس. النجيل: جنس من الحمض.
(٤) الديوان: ٢٠١. والخبر مع البيت الثالث في الأغاني: ٥/١٢.
(٥) شمام: جبل ببلاد بني قشير. وابنا شمام هضبتان تتصلان به.

متى أكلتْ لحـومَكم كـلابي　　أكلتَ يديك من جَرَبٍ تهامي[1]

أمَّا النابغة فإنه كان يؤكِّـد ما ذهبنـا إليه آنفـاً من أنه كـان مغلباً في الهجـاء، إذ قـال[2]: «إني وإيـاه[3]لنبتـدر بيتـاً، أينـا سبق إليـه غلَب صاحبه»، فلما بلغه قول أوس:

لعمرُك ما تبلى سرابيلُ عـامرٍ　　من اللؤمِ مادامت عليها جلودُها

قـال النابغـة: «هذا البيت الـذي كنـا نبتـدر إليـه». فغلِّب أوس عليه.

وقد التقى به مـرّة في البصرة بسوق المـربد فتنـافرا وتهـاجيا، وقـد شهـدهمـا من الشعـراء العجّـاج والأخـطل وكعبُ بن جُعَيـل، فقـال أوس:

لَـمـا رأتْ جعــدة منّــا وِردا　　ولُوا نَعامـاً في البلاد رُبْـدَا[4]

إنّ لـنــا عـليـكُـمُ مَـعَــدّا　　كـاهلَهـا وركنَهـا الأشـدّا[5]

فقال العجّاج:

كـل امـرىء يـعـدو بمـا اسـتـعـدّا

وقال الأخطل:

وإنّي لقـاضٍ بين جعـدةِ عـامـرٍ　　وسعـدٍ قضاءً بـين الحقّ فيصـلا

أبو جعدة الذئب الخبيثُ طعامه　　وعوف بن كعبٍ أكرمُ الناسِ أوّلا

---

(١) تهامي: نسبة إلى تهامة. ووبر بن أوس هو أوس بن مغراء نفسه.

(٢) الأغاني: ١٢/٥.

(٣) المقصود أوس بن مغراء.

(٤) الورد: الجيش. الربداء من النَعام: ما كانت سوداء اللون تختلط ببياض أو غبرة.

(٥) معدّ: من أجداد العرب وإليه ينتسب أوس بن مغراء.

أما كعب بن جعيل، فهو الآخر، قد أدلى بدلوه وناصر رفاقه وأعانهم على الجعدي وقال[1]:

إنِّي لقاضٍ قضاءً سوف يتبعه
مَن أمَّ قصداً ولم يعدِل إلى أوَدِ[2]

فصلاً من القول تأتم القضاةُ به
ولا أجور ولا أبغي على أحدِ

ناكت بنو عامر سعداً وشاعرَها
كما تنيكُ بنو عبسٍ بني أسدَ

وإذا تضافر هؤلاء على الجعدي وتفوَّقوا عليه في الهجاء، فإنّ لذلك أسبابه ودوافعه، فالأخطل وكعب بن جعيل، كلاهما شاعران أمويّا الهوى وكذلك العجاج، بينما كان النابغة علوي النزعة، وهو فضلاً عن ذلك، قد استضاء بنور الإسلام، وتلا القرآن وتدبّره، وكان يجاهد في سبيل الله تعالى، فمثله، من الطبيعي أن يترفّع عن فاحش القول، ويتعفّف عن الإنزلاق في مساقط الشرِّ والمفاسد، قال[3]:

يا ابن الحيا إنِّني لولا الإلّه وما
قال الرسولُ لقد أنسيتُك الخالا

وقيل[4] إن رجلاً من قُشير ـ يدعى ابن الحيا (وهي أمّه) واسمه سوّار بن أوفى بن سَبْرة ـ قد هجاه وسبّ أخواله[5] من أزد في أمر كان

(١) الأغاني: ١٣/٥.
(٢) الأود: الإعوجاج.
(٣) ديوانه: ١٠١.
(٤) الأغاني: ١٣/٥.
(٥) الأغاني: ١٤/٥.

بين قشير وبين بني جعدة وهم بأصبهان متجاورون، فردّ عليه الجعدي بقصيدة عُرفت باسم الفاضحة لأنه ذكر فيها معايب ومساوىء قُشير وعُقيل، وكل ما كانوا يُسبّون به، وفخر بقومه وبفضائلهم، وبسائر بطون بني عامر سوى قُشير وعُقيل، قال[1]:

جهلتَ عليّ ابنَ الحيا وظلمتني
وجمّعت قولاً جاء بيتاً مضلّلا

عددتَ قُشيراً إذ فخرتَ فلم أُسأ
بذاك ولم أزمعْك عن ذاك معزِلا

يتّهم خصمه بالجهل والظلم، وقد فاخره بكثرة سادات قُشير، وهو يعلم بأن قوم الشاعر أكثر عدداً وأعزّ، لذلك فإن الجعدي يعتبر أن ذلك الادعاء لا يسؤوه ولا ينتقصه.

وقال[2] في قصيدة أخرى يهجوه:

يا بن الحيا إنني لولا الإله وما
قال الرسول لقد أنسيتُك الخالا

ولقد وسمتُكَ وسْماً لا يغيّبه
ثوباك يبرق في الأعناق أحوالا

أنّ تُهمُم فينا الناقصات وقد
كنّا نقدّم للظُلّام أنكالا[3]

فإنّ صخرتنا أعيت أباكَ ولا
يألو لها ما استطاع الدهر إخبالا[4]

(١) الديوان: ١١٤. الأغاني ٥/١٤.
(٢) الديوان: ١٠٠. وبعض الأبيات في الأغاني: ٥/١٤
(٣) أنكال: جمع نِكل أي القيد.
(٤) يألو: يقصّر. الإخبال: الانتفاع بالناقة.

ينسب الجعدي خصمه سوّار بن أوفى إلى أمه استصغاراً له وتحقيراً لشأنه، وهو لم يفحش له القول لأنه مسلم يخاف الله تعالى ويلتزم أوامر الدين بعدم الافتراء والنيل من الأعراض، ولكنه ينسب إليه وإلى أبيه وقومه الجبن والذلّ والصّغار، فيقول[1]:

ويومَ مكّة إذا ما جدتم نفراً حاموا على عُقد الأحساب أزوالا[2]

عند النجاشي إذ تعطون أيديَكم مقرّنين ولا ترجون إرْسالا[3]

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيباً بماء فعادا بعدُ أبوالا

ويتابع الأبيات، بعد ذلك مفاخراً عليه بما كسبوه في الأيام والمواقع التي كانت لهم، ولم يذكر لهم إلاّ نجدتهم لرجل من جعدة بشربة ماء وأخرى من لبن.

وفي إطار القصّة عينها قال[4]:

أبلغ قشيراً والحرِيش فما ذا ردّ في أيديكم شتمي[5]

ولما بلغ ما قاله النابغة، مما أوردناه آنفاً، ليلى الأخيليّة[6] ثارت وغضبت لقومها ولزوجها سبرة، ردّت عليه بقصيدة منها:

وما كنتُ لو قاذفتُ جل عشيرتي لأذكر قَعْبي حازرٍ قد تثمّلا

---

(١) الديوان: ١٠٤. والأغاني: ٥/١٤.

(٢) ماجد: فاخر. أزوال: جمع زول: فتى ظريف.

(٣) إعطاء اليد: كناية عن الذلة والانقياد.

(٤) الأغاني: ٥/١٥. والديوان: ٢٣٤.

(٥) الحريش هو الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة

(٦) هي ليلى بنت عبد الله بن الرحال بن شداد بن كعب، شاعرة فصيحة، توفيت سنة ٨٠ هـ.

(٧) حازر: حامض. تثمّل: صار رغوة.

وهي تستنكر عليه ما قاله في البيت الثالث من المقطوعة السابقة، وهكذا استعرت المهاجاة بينهما بسبب قصّة سبرة.

أثارته ليلى بردّها واستفزّته فردّ قائلاً[1]:

ألا حـبِّـيـا لـيـلى وقـولا لهـا هـلا
فـقـد ركـبـتْ أمـراً أغـرّ محـجّـلا[2]
بـريـذيـنـةٌ بـلُّ الـبراذيـنَ ثـغـرُهـا
وقـد شَـرِبَـتْ مـن آخـر الـصـيـفِ أُيّـلا[3]
دعـي عـنـك تهـجـاءَ الـرجـالِ وأقـبـلي
عـلى أذلـغـي يمـلأ اسـتَـكِ فـيـشـلا[4]
وكـيـف أهـاجـي شـاعـراً رمحـه اسـتُـه
خـضـيـب الـبـنـانِ لا يـزالُ مـكـحّـلا

وهو إذاً شبّهها بالخيل، واتّهمها بالفجور، ممّا لا يُحمد عليه، إلّا أنّها ردّت عليه وقالت:

أنـابغُ لم تنبغْ ولم تـكُ أوّلاً   وكنتُ صُنيّاً بين صُدّين مجهلا[5]
أنابغُ إن تنبغ بلؤمِك لا تجدْ   للؤمِك إلاّ وسْط جعدةَ مجعَلا

---

(١) الديوان: ١٢٣. والأغاني: ١٦/٥.

(٢) «أمراً» في الأغاني: ١٦/٥ «أيراً» وهو ما يوافق المعنى، ويؤكده ما جاء في البيت الثاني من شربها للبن الأيل الذي كانوا يزعمون أنه إذا شربته المرأة اغتلمت. وقوله: «هلا» كلمة زجر تزجر بها الإناث من الخيل إذا نزي عليها الفحل لتسكن.

(٣) بريذينة: تصغير برذونة وهي التركي من الخيل.

(٤) أذلغي: نسبة إلى أذلغ بن شداد وكان نكّاحاً. الفيشل: رأس الذكر.

(٥) الصُني: المسيل. صُدّان: جبلان. مجهل: أرض لا يهتدى فيها. والأبيات في الأغاني: ١٧/٥.

تـعـيّرني داءً بـأمِـك مـثـلُه وأيُّ حَصَـانٍ لا يُقـال لهـا هـلا

ويروى أنّ بني جعـدة، لمّـا بلغهم قـولهـا هـذا، استـاؤوا استيـاءً شديداً، وقرّروا أن يستَعْدوا عليهـا صاحب المدينة، أو الخليفـة لأنها نالت منهم وهشّمتهم، فلما أتاها خبرهم قالت[1]:

أتـاني مـن الأنـبـاء أنّ عـشـيـرةً
بـشَـوْرانَ يُـزجـون المـطيّ المـذلّـلا[2]
فـيروح ويـغـدو وفـدهـم بـصـحـيـفـةٍ
لـيـسـتـجـلدوا لي، سـاء ذلـك مـعـمَـلا

وفي نهاية الكلام على هجاء الجعدي، بات واضحاً أنه لم يبلغ مـا بلغه أقرانه في هذا المجال، لأنه لم يكن مهيّئـاً نفسيّاً لـذلك، ولم يكن تدينه ليسمـح له أن يقـذع، ولو أنـه قد أقـذع فعلاً في هجـائه لليـلى الأخيلية. ولكنّنا لا نراه يطيل في هجائـه لأحد ممن هجـاهم كما فعـل في الـوصف والفخر، فليس من طبعـه السبّ والشتم وهـو لا يهجـو لإشبـاع شهوتـه كما كـان غيره من المتعصبـين قبلياً فـأفلتـوا لألسنتهم العنان، دون رادع من خوف أو وجل أو خجل.

الفخر:

إذا تحدثنا عن الهجاء، لا بدّ لنـا من المجيء إلى خبر الفخـر، لأنه يرتبط، هو الآخـر، بالحيـاة البدويـة والعصبية القبليـة، حيث يفاخـر الشعراء بأنفسهم وبقبائلهم ذاكرين أيام الانتصارات، شماتةً بالأعداء وتحقيراً لهم، فالشاعر لسـان قبيلته والنـاطق باسمهـا، وكان الجعـدي

---

(١) الأغاني: ٥/١٨.

(٢) شوران: جبل بديار بني جعدة.

ينطق، حقاً، باسم قبيلته، وهو لا ينفصل عنها ولا يهرب من المواجهة من خلالها، لذلك نراه كثير التغنّي بأمجاد قومه في مواقعهم التي جعل من شعره سجلاً لها قال[1]:

هلاّ سألت بيومي رَحْرحان وقد
ظنّتْ هوازنُ أنَّ العزّ قد زالا[2]

وهذا البيت هو من قصيدة مررنا على ذكر بعض أبياتها، وكان هجا فيها قوم سبرة زوج ليلى الأخيلية، ومن الأيام التي فخر بها يوم وادي نِساح[3] ويوم مكّة، وبمناسبة مقتل علقمة الجعفي، وشراحيل بن الأصهب الجعفي، ويوم شراحيل هذا تفتخر به مُضر كلها.

ومن فخره في قصيدته الرائية قوله[4]:

وإنّا أناسٌ لا نعوّد خيلنا
إذا ما التقينا أن تحيد وتنفرا
وتنكرُ يومَ الروع ألوان خيلنا
من الطعن حتى تحسبَ الجون أشقرا

يفاخر بالشجاعة والاقدام فليس غريباً على خيلهم أن تطعن أو تقتل فتتغيرُ ألوانها من كثرة الطعان والعجاج.

ويتابع قائلاً:

---

(١) الأغاني: ٥/١٥.
(٢) رحرحان: جبل قريب من عكاظ خلف عرفات.
(٣) نِساح: وادٍ باليمامة. وفي الأغاني: ١٨/٥، تفصيل حول هذه الأيام وأخبارها.
(٤) ديوانه: ٥٠.

وما عُلِمَتْ من عُصبةٍ عربيةٍ
كميلادنا منّا أعزّ وأكبرا

واسرعَ منّا إن طُردنا انصرافه
وأكرمَ مِنّا إن طردنا وأظفرا

ويسير على هذه الشاكلة ذاكراً أعمال قومه البطولية ضدّ خصومها من القبائل الأخرى:

ونحن حدرنا رهط سامةَ بعدما
أبنّوا من الأجباب مبديً ومحضرا

وكندةُ كانت بالعقيق مقيمةً
وعكٌ فكلّاً قد طحرناه مطحرا[1]

ونحن أزلنا مذحجاً عن ديارها
وهمدان أسقينا السّمامَ وحِميرا

ويذكر في القصيدة ذاتها، ما فعلوه بالقبائل الأخرى، حيث أزالوها عن مواقعها فسيطروا على نجران ومنعوا الماء عن الأعداء.

وعلقمة الجعفي أدرك ركضُنا
على الخيل إذ صامَ النهار وهجّرا

ونحن ضربنا بالصفا آل دارمٍ
وذبيانَ وابن الجونِ ضرباً مذكّرا

أرحنا معدّاً من شراحيلَ بعدما
أراهم مع الصبحِ الكواكبَ مُظهِرا

ولا تنجو نساء الخصم من نصيبها، قال[2]:

---

(١) طحر: قذف.

(٢) ديوانه: ٥٧.

ولم يـر فـيـمـن وجّـن الجـلد نـسـوةً
أسـبَّ لأضـيـافٍ واقـبـحَ مـنـظرا

وهنّ قبيحات المناظر إلى جانب بخلهنّ ولؤمهنّ:

وأعظمَ أقداماً وأصغر أسؤقا وأعظمَ أفواهاً وأرحبَ منخِرا[1]

وبنو سعد بعيدون عن المفاخر ليس لهم في المجدِ نصيب على زعم الشاعر، فهم سارقون فاسقون لئام:

إذا ذكـر الـسـعـدي فـخـراً فـقـل لـه
تـأخّـر فـلمْ يجـعـل لـك الله مـفـخـرا
إذا أدلـج الـسـعـدي أدلـج سـارقـاً
فأصـبـح مخـطومـاً بـلؤمِ مـعـذّرا[2]

يسوقنا ما ذكرناه إلى القول بأن هنالك تداخلاً بين الفخر والهجاء، فإذا فخر الشاعر فإنه سوف يهجو والعكس صحيح، لأن المقصود من الفخر أساساً إغاظة الخصم والترفع عليه، ولا يتمّ ذلك إلا بتنقيصه، وتحقيره، ويبلغ الانتقاص مداه في السبّ والشتم وهذا ما نهى عنه الإسلام، لذلك قصّر الجعدي فيه بالمقارنة مع الأخطل وغيره ممّن تغلّبوا عليه.

وها هو يقول مفاخراً بما قام به من بطولة:

وغـارةٍ تسعـر المـقـانبَ قـد سـارعتُ فيهـا بصلدِمٍ صَمَمِ[3]

---

(١) ديوانه: ٥٨.

(٢) ديوانه: ٥٩.

(٣) ديوانه: ١٥٥. والصلدم: الفرس الشديد.

ولكنـه سرعان مـا يستطرد إلى وصف الفـرس ليعود بعـد ذلك إلى العتاب.

وخلاصة مـا يقال في الفخـر، من حيث المعاني قـد سار عـلى نهج الجاهليين في منافراتهم. وأغلب الـظن أن أكثر مفـاخراتـه كانت قبـل إسلامه، ولـو أنه لم يفعـل كغيره ممن نهشـوا الأعراض وسبُّـوا وشتموا من أجل أن يُظهروا أنفسهم، فقد حصر فخـره بالشجـاعة والبـطولة والاقـدام. وهو لم يفـاخر بفضـائله فحسب، بل فـاخر بقـومـه ونـوّه بمنجزاتهم.

الوصـف:

وهو فنٌّ قديم يعتمد على دقّة ملاحظة الشاعـر، وعبقريتـه في نقل المشاهدات المحسـوسة، والمرئية منهـا خصوصـاً، عن طريق الكـلام المنظوم شعراً. ولكن الجاهليين لم يعـرفوا الـوصف كفنٍّ مستقلٍّ، بـل اعتبروه من متمّمات الموضوع الأساس مدحاً كان أم فخـراً أم هجاء. والنابغة الجعدي، لم يختلف عن شعراء عصره في ذلـك، إلّا في كونـه قـد تفوّق عليهم في وصف الفـرس وهذا بشهـادة النقّـاد فنقـل[1] ابن سلام أنه أوصف الناس لفرس. قال[2]:

غـدا مَـرِحـاً طـربـاً قلبُـه ... لَـغِـبـنَ وأصبـحَ لم يـلغَـبِ[3]

كـأنّ تمـاثـيـلَ أرسـاغـهِ ... رِقـابُ وُعولٍ لـدى مَشرَبِ[4]

---

(١) طبقات فحول الشعراء: ٥٤، والقول ليونس بن حبيب النحوي.

(٢) ديوانه: ١٩.

(٣) لغِبن: تعبن.

(٤) وعول: جمع وعـل وهو ذكـر الأروى. الأرساغ: جمـع رسغ: مـا بين الحـافر والوظيف.

كأن حوافره مُدبراً خضبن وإن كان لم يُخضبِ

فالفرس نشيط خفيف، وأرساغه غليظة منحنية غير متصبة حتى إنها لتشبه رقاب الوعول التي مدَّتها لتشرب. والحوافر سود كأنها خضبت وهي لم تخضب. وهكذا فهو يمضي في وصف الفرس متدرجاً مفصلاً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة فيذكر الساقين والذراعين والمنكب والبطن والظهر، ثم ينتقل إلى صوته وسقوطه من أعلى إلى أسفل، قال[1]:

ويصهلُ في مثل جوف الطويِّ صهيلاً يبينُ للمعرب

ومن دون ذاك هويٌّ له
هويُّ القُطامي للأرنبِ[2]

وقال[3] في قصيدة أخرى:

وعناجيجَ جيادٍ نُجُبٌ نجْلِ فيّاضٍ ومن آل سَبَلْ[4]

قُصِرَ الصُّنعُ عليها دائباً فإذا الصاهلُ منهنّ صَهَلْ

جاوبتْه حُصُنٌ مُمسَكَةٌ أرِناتٌ لم يلوِّحها المَمَلْ[5]

مثلَ عزفِ الجن في صلصلةٍ ليسَ في الأصوات منهن صحلْ[6]

---

(١) ديوانه: ٢٣. الطوي: البئر المطوية. المعرب: من يملك خيلاً عِراباً.

(٢) الهوي: السقوط. القطامي: الصقر.

(٣) ديوانه: ٨٦ وما بعدها.

(٤) عناجيج: جياد الخيل. الواحد: عنجوج. فياض: اسم فرس لبني جعدة. سَبَل: فرس لبني جعدة أيضاً.

(٥) أرِنٌ: نشيطٌ. الممل: الكسل. ممسكة: محجلة الأطراف.

(٦) عزيف الجن: صوته. الصَّحَل: البُحّة.

فجرى من مِنخريه زَبَدٌ   مثلَ ما أثمر حُمّاض الجبلْ[1]

إذاً هي خيول عربية أصلية كريمة، نشيطة قوية، إذا صوَّتت جماعة منها، أجابتها جماعة أخرى فتختلط الأصوات فتصدر ضجيجاً وصخباً حتى لكأنما الجن تعزف، وحصان الشاعر يجري الزبد من مِنخريه أحمر كالدّم من شدة نشاطه وخفّته. وفي هذا المجال برع أيضاً من وصف البقرة الوحشية التي أضاعت ولداً لها فطافت تطلبه ثلاث ليال وأيامها، ولا تملك شيئاً إلّا أن تصيح:

فباتت ثلاثاً بين يومٍ وليلةٍ
وكان النكيرِ أن تُضيف وتجأرا
وباتت كأنَّ كشحها طيُّ ريطةٍ
إلى راجحٍ من ظاهر الرملِ أعفرا[2]

ومن أحسن تشبيهاته ـ وهي كثيرة ـ قوله:

يمور الندى في مِدريها كأنّه
فريدٌ هوى من سِلكه فتحدّرا

وقد شبّه الندى على المدرى بحبّات العقد من اللؤلؤ إذا هوى من سلكه وانفرط. وفي مكان آخر يتحدَّث عن حنين الخيل الذي يشبه فحيح الأفاعي قال[3]:

فأرسل في دُهمٍ كأنّ حنينها
فحيحُ الأفاعي أُعجلت أن تحجرا

---

(١) الحُماض: من البقول لها ثمر أحمر.

(٢) الديوان: ٦٤. والكشح: البطن والخاصرة. الريطة: ملاءة ذات لفتين أو ثوب لين رقيق.

(٣) الديوان: ٦٦.

لها حَجَلٌ قُرعُ الرؤوس تحلّبت
على هامةٍ بالصيفِ حتى تموّرا

ويصف تقريب حصانه قائلاً[1]:

يبذُّ الجيادَ بتقريبه ويأوي إلى حُضرٍ مُلهَبِ[2]
كُميتٌ كأنَّ على متنهِ سبائكَ من قِطعِ المُذهَبِ[3]

وبناءً على كل ما تقدّم، فإن الجعدي قد برع براعة فائقة في وصف الخيل كما وصف البقرة الوحشية، ولم يُعر اهتماماً كبيراً لغيرهما من الحيوانات، كالناقة أو الأسد.

الحكمة والخواطر:

لا تصدر الحكمة إلاّ عن رجل خبير مجرّب، وهذا أمر طبيعي، لأن الحكمة قول مأثور يهدف إلى إصلاح وتقويم الآخرين، فلا بدَّ للحكيم من أن يمتلك العناصر التي تخوّله أن يقول الحكمة، والنابغة الجعدي الذي عاش دهراً في الجاهلية ودهراً في الإسلام، قد خبر الحياة والناس، ورأى الحلو والمر، وعايش الأشرار والأخيار، وفهم الإسلام حق الفهم، وحمل الدعوة وبلغها وعمل على نشر مبادىء الدين الحنيف بكل ما أوتي من قوة وعقل وعلم. لذلك، نراه قد جمع من معطيات الحكمة ما يجعله قادراً على الوعظ بعيداً عن التكلّف والعناء، فجاءت حكمه مفعمة بعنصر الخير، داعيةً إلى المكارم

---

(١) الديوان: ٣١.

(٢) التقريب: أن يرفع الحصان يديه ويضعهما معاً، وهو ضرب من العدو. الحضْر: العدو. ملهب: مثير للهب لشدّته. ويبذّ: يغلب.

(٣) كميت مذهب: تعلو حمرته صفرة.

والفضائل بمعناها الشامل والواسع. فها هو يتناول الحلم والجهل، ولا ريب أن القضية كانت من قضايا عصره الكبرى وخصوصاً في البادية قبل البعثة النبوية، حيث الطيش والسفه، قال[1]:

ولا خيرَ في حلمٍ إذا لم يكن له
بوادرُ تحمي صفوَه أن يكدّرا
ولا خيرَ في جهلٍ إذا لم يكن له
حليمٌ إذا ما أورد الأمر أصدرا
ففي الحلم خيرٌ من أمورٍ كثيرةٍ
وفي الجهلِ أحياناً إذا ما تعذّرا

وتناول العيش والفقر والعسرة، فعبّر عما يؤرّق المرء ويقضّ راحته، وبحث عن الحل، فحضّ على السعي كي لا يقع في الفاقة أو الشكوى، قال[2]:

ولا ترضَى في عيشٍ بدونٍ ولا تنم
وكيف ينامُ الليلَ من باتَ معسرا
فسر في بلاد الله والتمس الغنى
تعش ذا يسارٍ أو تموتَ فتُعذرا

لم يقتصر الأمر، في هذين البيتين، على طلب الرزق دفعاً للفقر، إنما القضية تتعلّق بالكرامة، فليس للإنسان أن يذلّ نفسه، إذا كان قادراً على الكسب الشريف ولو أدّى به السعي إلى الموت. وللإنسان بنظره، دور لا بدّ أن يؤدّيه في هذه الحياة فيأمره بأن يضرّ الأعداء

---

(١) ديوانه: ٧٣.
(٢) ديوانه: ٧٣.

والأشرار، إن لم يستطع أن ينفع أصدقاءه، قال[1]:

إذا أنت لم تنفع فضرّ فإنّما
يرجّى الفتى كيما يضرُّ وينفعُ

ولعمري، إن الجعدي بلغ في البيت من حسن المقابلة ما لم يبلغه غيره، فالأمر بالضرر ليس مقصوداً على الإطلاق فهو أراد أن يحثّ على النفع لمن يستحقه، والإضرار كذلك لمن يستحق الضرر. ويستمر في نزعته الخيِّرة، فيقرِّر حقيقة قديمة، ويذكّر بها لعلّ العاقل يتذكّر وهي صراع الخير والشر، والشر أكثر انتشاراً قال[2]:

كذاك لعمري الدهرُ يومان فاعرفوا
شرورٌ وخيرٌ لا بلِ الشرُّ أكثرا

من هنا، كانت دعوته، في ما تقدَّم، من أمره بإضرار من يستحق، وكأنه أراد أن يلفت إلى مبدأي الثواب والعقاب، فالإحسان لمن أحسن والعقاب لمن أساء. قال[3] في هذا المعنى:

فإنّ لدى الموتِ مندوحةً وإن العقابَ على المذنبِ[4]

ومن تأمُّلاته التي تتضمَّن تقريراً لواقع الحال، وفيها موعظة لمن يرغبون في العمر الطويل، لأن طول العيش قد يضر قال[5]:

المرءُ يرغبُ في الحياةِ وطولُ عيشٍ قد يضرّهْ
تفنى بشاشتُه ويبقى بعدَ حلوِ العيشِ مُرّهْ

---

(1) ديوانه: ٢٤٦.

(2) ديوانه: ٦٩.

(3) ديوانه: ٣٠.

(4) المندوحة: السعة.

(5) ديوانه: ١٩١.

ويبدو أنه قال هذين البيتين في أخرة من حياته، أي بعد أن رأى من الحياة ما يسرّه وما يسوؤه، فتبيّن له في نهاية الأمر أن ما ينكّد على الإنسان عيشه يزداد ويتراكم مع مرور الأيام، وخصوصاً إذا كان من الأخيار، باعتبار أن الشرّ موجود وفي صراع دائم مع الخير، فكيف يجد السعادة من طال به العمر، وتكاثرت من حوله الشرور؟!.

يتضح من خلال ما عرضناه، أن للجعدي مدرسته الأخلاقية القائمة على المبادىء الإسلامية الداعية إلى المكارم. ولا ريب في أن الشاعر قد احتفظ بعناصر بدوية كثيرة، فيما يتعلّق بأعمال المروءة، ففاخر بها وتغنّى، واستمدّ منها لترفده في مواعظه وتأمُّلاته، ولا يخفى على ذي نظر، ما كان لعمره المديد من أثر في توجيه تلك الخواطر توجيهاً أخلاقياً سديداً مبنياً على نظر ثاقب وخبرة عميقة.

أما من حيث المبنى، فقد جاءت حكمه وتأملاته تعبيراً عفوياً عما في داخله ومما تجمَّع لديه من أثر السنين، وهكذا ابتعد عن التكلُّف والتصنُّع، فجاءت الأفكار واضحة قريبة المتناول ليس فيها ما يشوبها. والألفاظ تشاكل المعنى فيها خفّة وسهولة في أكثر الأحيان، ولا يلمح فيها أثر البادية كما في أغراضه الأخرى، وذاك، لا شك بتأثير البيئة الإسلامية.

إسلامياته:

قد علمنا أن النابغة الجعدي قد أمضى جزءاً من حياته في الجاهلية، ثم أكرمه الله بالإسلام، فازداد خوفه من الله مع تعمّقه في الدين وتفقّهه فيه، فكثيراً ما يتحدث عن التقوى ويستمد معانيه في

ذلك من القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة، فقال[1] ينفي الغدر عن نفسه ويرد ذلك إلى خوفه من الله تعالى:

منعَ الغدرَ فلم أهْمُمْ بهِ ... وأخو الغدرِ إذا هَمَّ فِعَلْ
خشيةُ الله وأنّي رجلٌ ... إنما ذكري كنارٍ بقَبلْ[2]

ولا يكف في كل مناسبة أن يذكر نعمة الإسلام، ويعبّر عن انشراحه وسروره حيث تحوّل عن ظلمات الجاهلية إلى الهدى والقرآن. قال[3]:

وعمِّرتُ حتى جاء أحمدُ بالهدى ... وقوارع تُتلى من الفرقان[4]
ولبستُ من الإسلام ثوباً واسعاً ... من سيبِ لا حَرِمٍ ولا منّانِ[5]

ويخرج مجاهداً في سبيل الله تعالى، فتحزن زوجته، وتبكي على فراقه، فيواسيها ليقلّل من وقع الصدمة عليها، ولا يجد حيلة ينفذ بواسطتها إلى قلبها لتهدأ إلّا ما جاء في كتاب الله، من أمر بالجهاد، ولا مجال للتخلّف عنه إلّا لذي عذر وهو ليس كذلك، ولا داعي للخوف لأن الحوادث مقدّرة ولا يكون إلّا ما شاءه الله تعالى قال[6]:

يا بنةَ عمي كتاب الله أخرجني
كرهاً وهل أمنعنّ اللهَ ما فعلا

---

(١) ديوانه: ٩٦.
(٢) القَبَل: النشز من الأرض.
(٣) الديوان: ٢٠٧.
(٤) القوارع من الآيات: آيات الوعد والوعيد.
(٥) الرجل الحرِم: المانع. والسيب: العطاء.
(٦) الديوان: ١٩٤.

فــإن رجــعْــتُ فــربُّ الــنــاسِ يُــرجــعــني
وإن لحــقــتُ بــربي فــأبــتــغــي بــدلا

وهو لا يخرج تنفيذاً للأمر فحسب، لكنه يطمع أيضاً بالشهادة.
وهو يستوحي بعض معانيه من الكتاب الكريم، ويعبّر[1] عنها بطريقة فنية رائعة، فالمسلم لا ييأس إذا أصابه ما يكره، ولا يتكبّر إذا أثرى:

إذا مسّــه الشرُّ لم يكتئبْ وإنْ مسّــه الخــيرُ لم يُعجَبِ

وذلك على خلاف الإنسان الضعيف الذي تسيطر عليه شهواته، فلا يستطيع صبراً على ما يصيبه، فهو شديد الخوف عند المكاره، قليل الخير إذا امتلك الثروة، يقول[2] في معنى التصبّر والتسليم للقضاء:

وإنْ جــاء أمــرٌ لا تــطيــقــان دفــعــه
فــلا تجــزعــا ممــا قضى الله واصــبرا

ولا تغيب صورة الجنّة عن ذهنه ومخيلته فيقول:

فــأدخلَك اللّهُ بَرْدَ الجنــانِ جذلانَ في مَدخَــلٍ طيّبِ

وإذا تحدث عن الحوادث، نفى علم ما سيأتي منها، فلا يعلم الغيب إلاّ الله تعالى ولكن الإنسان يعلم ما مضى بعد حدوثه، قال[3]:

---

(١) ديوانه: ٣٣. انظر القرآن الكريم: ﴿خُلق الإنسان هلوعا. إذا مسّه الشرُّ جزوعا. وإذا مسّه الخير مَنوعا﴾ سورة المعارج: الآيات ١٩، ٢٠، ٢١.
(٢) ديوانه: ٣٥. ويرتبط معنى البيت بالإيمان بالقضاء والقدر خيره وشرّه.
(٣) ديوانه: ٣٣.
(٤) ديوانه: ٣٥.

لـوى الـلّهُ عـلمَ الـغـيـب عـمَّـن سَـواءَه
ويـعـلمُ مـنـه مـا مضى وتـأخّـرا

أما الماضي، فتبقى منه صور عالقة في الـذهن، لا تغيب عنه. من ذلـك تطوافـه في البلاد وبحثه عن الحقيقة، قبـل أن يفد عـلى النبي ﷺ، فقابل الرهبان والأحبار واطّلع على النصرانية واليهودية، ولكنهما لم يقـدِّما إليـه مـا كـان يبحث عنـه من العلم، حتى أنفـذ الله أمـره، وبعث نبيه محمداً ﷺ.

ومما يُروى[1] عنـه، أنه كـان في الجاهليـة، يذكـر دين إبراهيم عليـه الصـلاة والسلام والحنيفيـة، ويصـوم ويستغفـر، وكـان يُعمِـل عقله ويحسن التفكـير، وقال في تلك الفـترة[2] قصيـدتـه المشهـورة التي يبثّ فيها الكثير مما وعاه واعتقـده وعرفـه عن الله عزَّ وجـلّ، وعن صفاتـه تعالى، بالإضافة إلى مواعظ كثيرة أخرى. قال فيها:

الحمـدُ لله لا شريـكَ لـه من لم يقُلهـا فنـفسَـه ظـلما
الخـالقِ البـارىءِ المصـوِّر في الأرحامِ ماءً حتى يصـيرَ دما

يفتتح بحمد الله تعالى، والثناء عليه، ويقرّ بألوهيتـه ووحدانيّتـه، ويعتبر أن الذين لم ينطقوا بكلمة التوحيـد قد ظلمـوا أنفسهم، ينتقل إلى صفة من صفاته تعالى وهي صفة الخَلق، وتصويـر ما في الأرحـام من نطفة يخلق بشراً سوياً.

ولا يخفى ما في البيتين من توافق مع ما دعا إليـه القرآن الكـريم،

---

(١) الأغاني ٥/٩. القصيـدة في الديوان: ١٣٢.

(٢) في الأغاني: ٥/٩: «وقال في الجاهلية كلمتـه التي أولها: الحمـد لله لا شريك لـه... (البيت)». وقد قيـل: إن هذا الشعـر لأميـة بن أبي الصلت. ولكن أكثر الرواة صحّحوا نسبته إلى الجعدي.

ويبدو ذلك واضحاً في معظم أبيات القصيدة، فها هو يتحدَّث عن الليل والنهار، ليستدل من خلال تقلُّبهما على قدرة الخالق سُبحانه:

المولجُ الليلَ في النهارِ وفي الليلِ نهاراً يفرّجُ الظُّلما[1]

والله تعالى هو الذي رفع السماء بغير عمد:

الخافضِ الرافعِ السماءَ على الـ أرضِ ولم يبنِ تحتها دَعِما[2]

وكذلك اختلاف الأصوات واللغات، والطبائع والألوان والأرزاق، ليس صدفة، إنما قدّر الله ذلك.

ويحثُّ على التقوى، ويذكّر الإنسان بمصيره المحتوم، فلا عصمةَ إلّا لمن نال رحمة الله، والمؤمن يعزّه الله تعالى كما يذلّ الكافر. قال، بعد أن تحدّاهم بأنه لن ينفعَهم أرض ولا سماء:

في هذه الأرضِ والسماء، ولا عصمةَ منه إلّا لمن رحما[3]

ثمَّ يشير إلى الأمم البائدة، والتي شيّدت، في حقبة من التاريخ، الممالك وبلغت من القوة أي مبلغ، فدولة الفرس زالت وكذلك دولة سَبَأ، وسادة الأمس صاروا عبيداً، وساكنو القصور تحوّلوا عنها إلى الخيام، قال:

فمُزِّقوا في البلاد واعترفوا الـ
ـهُونَ وذاقوا البأساءَ والعَدَما

---

(١) هو من قوله تعالى في سورة الحديد: ٦: ﴿يولج الليلَ في النهار ويولج النهار في الليل﴾. والمعنى أنه يُدخل هذا في ذاك والعكس.

(٢) هو من قوله تعالى في سورة الرعد: ٢: ﴿الله الذي رفع السموات بغير عَمدٍ ترونها﴾.

(٣) هو من قوله تعالى في سورة هود: ٤٣: ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا مَنْ رَحِمْ﴾.

وبَـدَّلـوا السِّـدرَ والأراكَ بـه الـ
ـخَـمْطَ وأضـحـى الـبـنـيـانُ مُـنـهـدمـا[1]

وفي نهاية القصيدة يطلب العفو من ربّه، ويتوسّل إليه أن يبعده عن النار.

وبعد هذه الأمثلة والشواهد التي سقناها من القصيدة، يبقى السؤال: هل صحيح أن كل القصيدة نظمت في الجاهلية؟ بحسب رواية الأغاني فإنها كذلك، ولكن الأمر اللافت هو هذا الحشد الهائل من المعاني الدينية التي تضمّنتها القصيدة، ما يرجح عندنا الميل إلى من يقول بأنها قيلت في الإسلام، إن لم يكن كلها فبعضها، وعلى الأقل تلك الأبيات التي تتضمن المعاني الإسلامية الكبرى كمعنى الحمد، وظلم النفس والخلق والتصوير في الأرحام.

ومهما كانت الحال، فإن القصيدة تميّزت بوضوح أفكارها، وسهولة ألفاظها، واعتمد في قسمها الأول أسلوب السرد القصصي ثم الخطاب المباشر (فائتمروا الآن...)، (يا أيّها الناس..). ويخلص إلى تقرير ما أراد أن يوصله إلى الناس من وراء موعظته.

أما أبياته الأخرى، فقد جاءت متناثرة في مناسبات مختلفة وفي أماكن متفرّقة، كلها يتفق في المبدإ والجوهر، وأثر القرآن فيها جلي تماماً، والدعوة فيها إلى دين الله هي الأساس:

---

(1) هو من قوله تعالى في سورة سبأ آية: 16: ﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم سَيْلَ العَرِم وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أُكُلٍ خَمْطٍ وأَثْلٍ وشيء من سِدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا﴾. السدر والأراك: شجر لا ينتفع بثمره. الخمط: ثمر الأراك.

فالحمدُ لله إذْ لم يأتني أجَلي
حتى لبستُ من الإسلام سربالا[1]

الرثاء:

كان الرثاء في الجاهلية يمثّل نشيد الموت والتفجّع، وتميّز بالصخب والعويل والبكاء على القتلى والأموات من الأحبّة أو من أفراد العشيرة، وارتبط ازدهار هذا الفن بالعصبية الدموية من جهة، ولأن الجاهليين كانوا لا يعرفون أن حياةً أخرى تنتظرهم بعد الموت، من جهة أخرى.

أما في الإسلام، فقد انخفض صوت الرثاء، وضعف خصوصاً في عهد النبي ﷺ. وهكذا يسير النابغة في جاهليته على طريقة معاصريه، فيفخر ببطولات قومه كما بيّنّا ويرثي من يسقط منهم قتيلاً، وأكثر ما تتجلّى عواطفه المتفجّرة في رثائه لأخيه وحوح الذي قتله بنو أسد فقال[2]:

ومن قبله ما قد رُزئتُ بوحْوحٍ
وكان ابن أمي والخليل المصافيا[3]
فتى كمُلَت أخلاقُه غير أنّه
جوادٌ فما يُبقي من المال باقيا
فتى تمّ فيه ما يسرُّ صديقه
على أنّ فيه ما يسوء الأعاديا

---

(١) الديوان: ١٠١.
(٢) الديوان: ١٧٣.
(٣) الرزء: المصيبة. رُزِئت: أُصبتُ. والضمير في «قبله» يعود إلى ابنه محارب الذي ذكره في بيت سابق وكان أصيب به هو أيضاً.

إلّا أنّ هذا الرثاء، لم يصل في ضجيجه، إلى ما وصل إليه رثاء الخنساء[1] في أخويها. ولكن العاطفة تتأجّج فيها، والصدق يخيّم على كل بيت، لذلك جاءت الأبيات بعيدة عن التكلّف، وقد وُفّق الشاعر أيما توفيق في حسن المقابلة في البيت الثالث، إذ جمع في أخيه كل صفات الكمال البشرية من الكرم والشجاعة والأنفة ممّا يسرّ به الصديق، ويستاء به العدو.

الغزل

عرف الجاهليون الغزل لارتباطه بالمرأة وما تمثّله، فهي كانت، عندهم، رمزاً للفرح، وهي الصديقة والحبيبة، فضلاً عن كونها أمّاً أو أختاً. فتغزّلوا بها، ووصفوا جمالها، وتغنّوا بمفاتنها الجسدية، وبكوا على فراقها ووقفوا على أطلالها، وخاطبوها لأنها تذكّرهم بالحبيبة. وللدلالة على أهمّيّة المرأة، جعلوا الغزل في افتتاحيات القصائد، لينتقلوا بعدها إلى أغراض أخرى.

وفي صدر الإسلام، لم يتغيّر الأمر كثيراً، إلّا من حيث المعاني، فقد تغزّل الشعراء ولكنّهم لم يفحشوا القول ولم يذكروا المفاتن الأنثوية الجسدية، بل اكتفى أكثرهم بالتعبير الوجداني عمّا فعلته الحبيبة بمفارقتها ورحيلها، وشوق الشاعر إليها. والنابغة الجعدي لم يخرج عن هذا المنهج بل التزمه في أكثر قصائده. من ذلك قوله[2]:

هل بالديار الغداةَ من صَمَمِ
أم هل بربعِ الأنيس من قِدَمِ

(1) هي تماضر بنت الشريد، شاعرة جاهلية، أدركت الإسلام وأسلمت.
(2) ديوانه: ١٤٨.

أمْ ما تنادي من ماثلٍ
دَرَج السيلُ عليه كالحوض مُنهدِمِ[1]
كان بها بعضُ من هويتُ ومَنْ
يلقَ سروراً في العيش لم يَدُمِ
يسألني صاحبي بدائي وقد
نامَ عشاءً وبتُّ لم أنمِ

وهكذا يقف كما وقف امرؤ القيس وزهير بن أبي سلمى وعنترة يخاطب الديار، ديار الحبيبة التي غادرت، وما تركت له إلاّ الألم والسهر، وهو، كان يكتم حبّه في صدره، وما كان ليبوح باسم الحبيبة إلاّ كناية خوفاً من الحاسدين والمبغضين:

أكني بغير اسمها وقد علمَ اللّهُ خفيّات كلِّ مُكتتمِ
مخافةَ الكاشحِ المكثّر أنْ يطرحَ فيها عوائرَ الكَلِمِ

وبعد ذلك الكلام الخارج من القلب، الذي عبّر فيه عن خفايا نفسه المنسحقة بسبب شوقه للحبيبة ينتقل إلى ذكر صفاتها الحسنة والمميّزة: فهي طيِّبة الرائحة رائحةِ الفم والأنف في كل حال، ومما يزيد من حسن ثغرها وطيب رائحته أنها تستعمل سواكاً من شجر الضرو اليمني وهو من أجود الأشجار التي يستخدم خشبها لهذا الأمر، أما وجه الحبيبة فهو شديد البياض كليلة مقمرة، وكالزهرة الغرّاء، قال:

طيبةُ النشرِ والبُداهةِ والعِلاّتِ عند الرقادِ والنّسَمِ

---

(١) ماثل: دارس. الحوض: مجتمع الماء.

كـأنّ فـاهـا إذا تـبسّـم مـن طـيـبِ مَـشَـمّ وحُـسـنِ مُـبتَـسَـمِ
غـرّاء كـالـلـيـلـة الـمـبـاركـة الـقـمـراء تهـديّ أوائـلَ الـظُّـلمِ

وثغرها كالأقحوانة، أمّا الرُّضاب، فهو كالخمرة، أو كماء المزن من ماءِ دَومةَ في لذّته وبرودته.

والملاحظ هنا، أنّ الصُور والمعاني المستخدمة ليست بعيدة عن طرائق معاصريه، فالتغنّي بطيب النَّفسِ وتشبيه الثغر بالأقحوانة، وغير ذلك ممّا ورد من صور وتشبيهات، يمثّل مرتكزاتٍ وأسساً قام عليها الغزل في عصري الجاهلية وصدر الإسلام. فإذا ما أجرينا مقارنة سريعة بين مقطوعتين غزليتين لشاعرين من الفترة ذاتها، نجد أنّ حبيبة كلّ منهما تحملُ الصفاتِ ذاتها، ونُرجع ذلك، وببساطة، إلى اتفاق شعراء ذلك العصر على معايير موحّدة ومعروفة لجمال المرأة انطلاقاً من المعطيات الثقافيّة والبيئية لذلك العصر.

وقال[1] يتذكّر أميمة التي أحبّها حتى استولت على قلبه وسرعان ما بعدت:

تـذكّـرتُ ذكـرى مـن أمـيـمـة بـعـدمـا
لـقـيـتُ عـنـاءً مـن أمـيـمـة عـانـيـا
بـدَتْ فِـعـلَ ذي وُدّ فـلما تـبـعـتُـهـا
تـولّـت وأبـقـت حـاجـتي في فـؤاديـا
وحـلّت سـوادَ الـقـلـبِ لا أنـا بـاغـيـا
سـواهـا ولا عـن حـبـهـا مُـتـراخـيـا

ويتمنّى وصالها، ولو لم تفارقه لما أبغضها:

---

(١) ديوانه: ١٧٠.

ولـو دام مـنـهـا وصـلُهـا مـا قـلـيتُـهـا
ولـكـنْ كـفـى بـالهـجـر للحـب شـافـيـا
ومـا رابهـا مـن ريـبـةٍ غـيرَ أنّها
رأتْ لمـتي شـابـتْ وشـابَ لِـداتـيـا

ولـو بحثنا مـع الشاعـر عن سبب الهجر، لـوجـدنـا أنها ارتـابت وابتعـدت عنه عنـدما رأت شيبه ظاهـراً عـلى لمتيـه فلم يعـد يـرضي تطلعاتها.

ومن محبوباته اللواتي ذكرهن في شعره غير أميمة، سليمى:

وقـالـت سليـمى أرى رأسَــه كنـاصيـة الفـرسِ الأشهبِ[1]

كما ذكر سلمى:

أيا دار سلمى بالحرورية اسلمي إلى جـانب الصّـمّان فـالمتثلّمِ[2]

وليلى ذكرها بقوله:

تـأبّـد من ليـلى رُمـاحٌ فعـاذِبُ وأقفـرَ ممن حلّهنّ التنـاضِبُ[3]

وأمامة:

قـالـت أمـامـةُ كـم عُـمِـرْتَ زمـانـةً
وذبـحـتَ مـن عِـترٍ عـلى الأوثـانِ[4]

كـما ذكـر امـرأة بـاسم «ابنـة المجنـون» ولكنّـه لم يتغـزلّ بهـا بـل هجاها[5].

---

(١) ديوانه: ١٣. وتشبه الرأس بناصية الفرس الأشهب كناية عن الشيب.
(٢) الحرورية: موضع. وكذلك الصمّان والمتثلّم.
(٣) ديوانه: ١٨١، ورُماح: موضع بأرض بني ربيعة. وكذلك عاذب والتناضب.
(٤) ديوانه: ٢٠٦. العتر: شاة كانت تذبح للأوثان في الجاهلية.
(٥) ديوانه: ٢٠٦ قال:

مالي وما لابنة المجنون تطرقني بالليل إن نهاري منك يكفيني

ومما قاله[1] في وصف مغنية:

ولـدينـا قـينـةٌ مُـسـمِـعـةٌ ضخمـةُ الأردافِ من غير نفشْ

يعجبه فيها صوتها ومنظرها، وخصوصاً أردافها الممتلئة وهـذا على طريقة معاصريه.

وخـلاصة القـول في غزليـاته أنـه تغزّل بنسـاء كثيرات، ولم يكتف بذكر حبيبة واحدة، وأمعن في ذكـر المحاسن الجسـدية للمـرأة، لونها وبياضها، أسـنانها، فمها، رائحتهـا، أردافها. كـما كشف عن بعض ميول المرأة النفسية، فهي تفضّل الشبـاب على الشيـوخ، وفي الوقت ذاته، هو يعبّر عن إدراك الرجال بأن التقدّم في السن قد يكون مانعـاً من إقامة علاقات غرامية مع النساء، ومع ذلك لم يخفِ ميله إليهن في أكثر من موضع خصوصاً في مخاطبته لأميمة[2].

أمّا اسلوبه وصوره، فاستمدّهما من بيئتـه، ولم يأت بمـا هو جـديد إلاّ في أسلوب الكنـاية. ولكن ثمّـة صورة تستـوقفنـا، إذ إنـه يـذكـر ابتسامة الحبيبة فيشبّهها بالنور؛ والمعروف أنهم يشبهون الـوجه وبهـاءه بالنور، أما أن تُشبّه الابتسامة بالضوء، بـل هي تضيء الليل وتكشف الظلام، فهذا ليس مألوفاً، قال[3]:

إذا ابـتـسـمـتْ في الـلـيـلِ والـلـيـلُ دونَها
أضـاء دُجـى الليـلِ البـهـيـمِ ابـتـسـامُـهـا

(١) ديوانه: ٢٤٥.

(٢) راجع ص ٧٠ من هذا الكتاب.

(٣) الديوان: ٢٣٨.

اللهو والخمريات:

التغزّل بالخمرة ووصفها كثير في شعر الجاهليين، والخمرة عندهم كالغزل، هي رفيقة الشاعر أينما حلّ، فهي تواسيه، على زعمه، وتنسيه الهموم والأحزان، وتنقله إلى عالم آخر غير عالم الواقع، حيث يشعر بلذّة لا تعدلها لذّة[1]. لذلك كثير منهم كانوا إذا ذكروا المرأة، ذكروا الخمرة وفعلها في نفوسهم. والنابغة الجعدي له في هذا المجال، أي في مجالس اللهو، ووصف الخمرة، ولو أنّ ما بين أيدينا من خمرياته قليل، ولكنّه على قلّته يعطينا صورة واضحة عن منهجه وصوره، وممّا يقوله[2]:

ولقد أغدو بشَرب أُنُفٍ
قبل أن يظهر في الأرض رَبَشْ[3]

معنا زِقٌّ إلى سُمَّهةٍ
تسِقُ الآكال من رطبٍ وَهَش[4]

فنزلنا بمليعٍ مُقفرٍ
مسّه طلٌّ من الدجن وَرَش[5]

ولدينا قينةٌ مُسمعةٌ
ضخمةُ الأرداف من غير نفش[6]

---

(١) إن الخمرة لا تنقل الإنسان إلّا من الوعي إلى اللاوعي أي تجعله كالمجنون!

(٢) ديوانه: ٢٤٤.

(٣) الشَرب: اسم جمع لشارب. الربش: العشب والنبات.

(٤) سُمَّهة: خوص يجعل شبيهاً بسفرة. الأكال: ما يؤكل. الهش: اليابس.

(٥) مليع: مفازة. الطل: الندى. الدجن: المطر الكثير والغيم المظلم. الرش: المطر الخفيف.

(٦) قينة: مغنية.

إذاً توجّه الشّاعر مع جماعة الشّاربين والقاصفين، إلى المفازة حيث المكان خلو إلاّ من آثار الماء، وفيه بعض الأعشاب، وبصحبتهم وعاءُ الخمرة وما يلزمهم من مأكل ومشرب، فضلاً عن مغنية حسناء تطربهم، وخادم يقوم على خدمتهم، فأمضوا يومهم يتمتّعون وأكلوا شواءً من اللحم الغريض:

فاشتوينا من غريضٍ طيّبٍ غير ممنونٍ وأبنا بغبشْ[1]

ومن خمرياته، التي أجاد في نسجها الفنيّ، أبيات من ميميّته جمع فيها من صفات الخمرة ما تيسّر له، فساوى بين الخمرة وبين ريق المحبوبة ثم ذكر أسماء الخمرة التي تتميّز عن غيرها من حيث قوة تأثيرها وخلاصتها وأوليتها وملازمتها للعقل وذهابُها به فقال[2]:

عُلّت به قرقفٌ سُلافةُ إسفنطٍ عُقارُ قليلةُ النّدمِ[3]

ويذهب ليتغنّى بما فيها من مسك وفلفل، تشتهر به دارين في البحرين.

ألقيَ فيها فِلجان من مِسكِ دارين وفِلجٌ من فلفلٍ ضَرِمِ[4]

وتطرّق إلى تخزينها وحفظها في التراب بعد وضعها في الدنّ وختمه:

رُدّت إلى أكلَفِ المناكبِ مرسومٍ مقيمٍ في الطين محتدِمِ[5]

---

(١) ممنون: مقطوع. أُبنا: رجعنا. الغبَش: بقية الليل.

(٢) الديوان: ١٥٢.

(٣) قرقف: خمرة تذهب بالعقل. سلافة: أول الخمرة. إسفنط عقار: خمرة تلازم العقل.

(٤) الفِلج: مكيال.

(٥) أكلف المناكب: كناية عن الدن. مرسوم: مختوم بالروسم.

وهو، أي الوعاء، يشبه جون الحمار، فلا تجد فيه حامضا ولا هو متكسِّر.

جَونٍ كجونِ الحمارِ جرّده   الخرّاس لا ناقِسٍ ولا هزِمِ[1]

ولم يفته أن يتغنّى بلونها الأحمرِ وصفائها:

وصهباءَ لا تخفي القذى وهي دونَه
تُصفَّقُ في راووقها ثم تُقطَبُ[2]

شربتُ بها والدِّيكُ يدعو صباحَه
إذا ما بنو نعشٍ دَنوا فتصوَّبوا[3]

فتبدو من خلال الزجاج صافية نقية، كما يُرى القذى في أسفل الزجاجة لشدّة صفائها.

وهو لا يملّها فيلذّ له شربها حتى الصباح، حيث تدعوه فتاة بيضاء حسناء إلى البقاء معها، لكنه يترفّع عن ذلك! ومن الجدير بالذكر أن الأعشى[4] كان ممّن سبقوا إلى هذا المعنى في الجاهلية حيث قال[5]:

صهباءَ صافيةً إذا ما استُودِفَتْ
شُجَّتْ غواربُها بماءِ غوادي

---

(١) الجون: وسط الشيء. الخرّاس: صانع الدنان. هَزِم: متكسِّر.

(٢) ديوانه: ٤. صهباء: خمرة معتّقة. القذى: ما سقط فيها. الراووق: ما يروّق الخمرة.

(٣) بنو نعش: الأصل بنات نعش: سبعة كواكب. تصوّبوا: دنوا من الأفق للغروب.

(٤) هو ميمون بن قيس الأعشى الأكبر، شاعر الخمرة الأول في الجاهلية.

(٥) ديوانه: ١٢٩.

وقال[1] أيضاً:

كُمَيْتاً تكشّفُ عن حُمرةٍ ... إذا صرّحَتْ بعد إزبادِها

وقال[2] الأعشى ما يشبه قول النابغة:

وصهباءَ صِرفٍ كلونِ الفصوصْ ... سريعٍ إلى الشَّرب إنسالُها[3]
تُريك القذى وهي مِن دُونِه ... إذا ما تُصفَّقُ جِريالُها[4]

كما وافق[5] الجعديُّ الأعشى مرّة أخرى حيث قال:

وشَمُولٍ قهوةٍ باكرتُها ... في التباشير من الصبحِ الأوّلْ
باشَرَتْه جَوْنَةٌ مرشومَةٌ ... أو جديدٌ حَدَثُ القارِ جَحَلْ

قال[6] الأعشى:

وشمولٍ تحسِبُ العَيْنَ إذا ... صُفِقَتْ وردَتَها نَوْرَ الذُّبَحْ
مِثلُ ذكي المِسك ذاكٍ ريحُها ... صبّها السّاقي إذا قيل تقرحْ
مِنْ زِقاقِ التّجر في باطيةٍ ... جونةٍ حاريةٍ ذات رَوَحْ

ومما قاله[7] الأعشى في صفة الخمرة ومجلسها وشربها:

وكأسٍ كعين الديك باكرْتُ حدُّها
بفتيانِ صدقٍ والنَّواقيص تُضرَبُ

(١) ديوانه: ٧١.
(٢) ديوانه: ١٦٣.
(٣) الفصوص: جمع الفص وهو حدقة العين. صهباء: خمرة معتّقة.
(٤) القذى: ما يسقط في الشراب أو العين من غبارة وغيره. الجريال: صبغ أحمر.
(٥) ديوان النابغة: ٨٦.
(٦) ديوانه: ٢٤١.
(٧) ديوانه: ٢٠٣.

سُــلافٍ كــأنّ الـزعـفـرانَ وعَـنْـدَمـاً
يُـصـفَّـقُ في نـاجـودِهـا ثـم تُـقـطَبُ[1]

وهكذا، سار الشعراء، فيما بعد، على طريق الجعدي والأعشى، فتناولوا الخمرة ووصفوها وصفاً حسياً، كما تناولوها من حيث أثرها في النفس وفي الأعضاء. ولينظر في ذلك الأخطل من شعراء العصر الأموي، وأبو نواس من بعده، الذي طوّر القصيدة الخمرية وجعلها فنّاً مستقلاً، وجعلها إطاراً لبثّ مذهب فكري وأدبي وفلسفي، وشتّان بين هذا الأخير وبين الجعدي، الذي عبّر عن سروره ولهوه بالبساطة الممكنة دون اللجوء إلى تحميل الألفاظ أكثر مما تحتمل، كما أنه لم يلجأ إلى التعقيد، بل حافظ على العفوية في التعبير.

الزهد:

لم يُعرف هذا الفن في نطاقه الواسع، إلاّ في العصر العباسي حيث الحياة المعقّدة، وطغيان الدنيا على النفوس الضعيفة. ولكننا نلحظ، ومنذ الجاهلية أن كثيراً من الشعراء قد نبذوا حياة العبث واللهو في صغرهم، ومنهم مَن فعل ذلك في سنٍّ متأخّرة، أما النابغة فإنه يختلف قليلاً عمّن ذكرنا، لأنه عاش في الجاهلية ردحاً طويلاً من الزمن، ولم ينغمس أصلاً في متاهات الجهل والفساد، ورفض الأوثان، ولم يعبدها، حتى أكرمه الله بالإسلام، فازدادت فضائله، وتأصّلت نزعة الخير التي حملها منذ زمن، ولذلك كان زهده أقرب إلى الخواطر، وتقرير الحقائق الإنسانية، من خلال تجربته الطويلة مع

---

(1) السلاف: خلاصة الخمرة. العندم: شجر له عروق حمر يُصبغ به. الناجود: وعاء الخمرة. تصفيق الخمرة: ترويقها وتصفيتها. قطب الخمرة: مزجها.

الحياة، وكأنه وصل إلى حدٍّ وجد نفسه وقد صارت الحياة تزعجه قال[1]:

وتسوؤه الأيامُ حتى ما يرى شيئاً يسرّهْ
كم شامتٍ بي إنْ هلكتُ وقائلٍ لله دَرُّه

تحمل الأبيات نظرة سوداء إلى الحياة، ولكن الشاعر لم يكن متشائماً أو رافضاً للحياة، فهو رضي العيش، وناضل وجاهد طيلة حياته ليعيش حياةً كريمة، كما جاهد في سبيل الله، ولا يفسّر ما ورد في الأبيات إلّا من باب تقرير واقع النفس الإنسانية وما يطرأ على الإنسان من تحوُّلٍ في ميوله وأهوائه بحسب تغيّر قواه الجسدية، فإذا اضمحلت القوى الجسدية وانهارت، يرغب عند ذلك، كثير من الناس بالموت. أما الحقيقة الأخرى، فتتجلّى في أن النفس أمّارة بالسوء، وكل يوم يمرّ على الإنسان قد يأتي عليه بما يضرّه ويسوؤه، مما يجعل الناظرين إليه في نهايته فريقين: فريق شامت بما حلّ به ووصلت إليه حاله، والفريق الثاني يدعو له ويشكر فعله وهذه هي الحقيقة الثالثة التي أراد أن يقررها الشاعر.

وها هو يحذّر، في مكان آخر من الدهر، ويتهمه بالخيانة، على عادة شعراء الجاهلية، فكثيراً ما كانوا يلقون بتبعة ما يصيبهم من النوائب على الدهر، ولو أنني أميل إلى أن رأيه هذا بالدهر يُحمَل على معنى آخر، وهو عدم استقرار الأحوال، فمع مرور الأيام، الناس يتغيرون، والأصدقاء قد يصيرون أعداء والعكس صحيح يقول[2]:

---

(١) ديوانه: ١٩١. وراجع ص ٦٠ من هذا الكتاب.

(٢) ديوانه: ١٠.

ولا تــأمــنــوا الــدهــرَ الخــؤون فــإنّــه
عــلى كــل حــالٍ بــالــورى يــتــقــلّبُ

وانطلاقاً من قوله هذا يصل إلى الحقيقة الأخرى التالية:

وأعلمُ أنَّ الخــير ليس بــدائمٍ   علينـا وأن الشرّ لا هـو يــرتُبُ

إذاً، ما أراده الشاعر، ليس الحكم من خلال نظرة سوداوية، إنما التحذير مما هو آتٍ ليكون الإنسان على بيِّنة من أمره ولا يقع في ما لا يرغب، أو ينخدع بالدنيا وزينتها.

خصائصه العامة:

بما أن النابغة الجعدي قد عاش بين عصرين، فإنـه جمع في شعـره خصائص بيئتين مختلفتين، ولكن انعكاس الفـروقات البيئيـة وأثره في شعره لم يكن كبيراً، ومهما كانت الحال نستطيع أن نسجِّل الخصـائص التالية:

ـ النزعة الإسلامية، ويقودنا ذلك إلى الكلام على مذهبه الأخلاقي الـداعي إلى المكارم، والترفّـع عن الـدنـايـا، والحثّ عـلى اكتسـاب الرزق، كي لا يقع المرء فريسة للفقر، الذي يؤدي بدوره إلى الـذلّ، وغير ذلك كثير، مما يبدو عليه أثر القرآن الكريم والدين الحنيف.

ـ الحكمة، وترتبط بتـديُّنه وأخـلاقه وتجـربته الـطويلة التي اكتسبها من خـلال عمـره الـطويـل. وتـدور حكمـه، أيضـاً، حـول العيش والحياة، والخير والشر، والطبائع البشرية، واختلافها وسلوك الإنسـان وغير ذلك من شؤون عايشها وخبرها.

ـ الواقعية، إذا قيل إن الشعر الجاهلي ابن بيئته، فإن مصداق ذلك في شعر الجعدي، ولا يغيّر كونـه عاش أيضـاً في صدر الإسـلام شيئاً

من هذه المقولة الحقيقية، فهو قريب من بيئته الطبيعية إلى درجة أن قصائده غنية جداً بالصور والمعاني المستمدّة من البادية وما فيها من حيوانات كالبقرة الوحشي، الجؤذر، الخيل، الظباء والإبل وما سوى ذلك، فوصفها وصفاً دقيقاً، كما تكلّم على البيئة الثقافية فعبّر عن الإسلام وفضائله، كما تحدّث عن مجالس اللهو والخمرة والنساء وغير ذلك مما يدلّ على أنّ في شعره صورة وافية للعصر، وأكثر ما يلفت الانتباه، مهاجاته مع بعض الشعراء مثل ليلى الأخيلية وكعب بن جعيل والأخطل وغيرهم، ما يدلّ على أنه التزم الإسلام وامتنع عن قول ما يناقض إسلامه، مما أفسح لهم المجال ليتغلّبوا عليه.

ـ أسلوبه، تختلف الآراء في الحكم على شعره، فمن رأي قائل بأنه شاعر مفلق إطلاقاً، ومن رأي آخر يقول بأنّ في شعره الجيد والرديء، وهذا هو الأرجح، ولا أرى فيه عيباً يغضّ من قيمة الشاعر، خصوصاً إذا تذكّرنا أنه لم يكن يحبّ التصنّع والتكلّف، بل ترك لسجيته أن تتحرّك كيفما شاءت وعبّر عن أحاسيسه بوضوح وبسهولة جعلت من شعره دون المستوى المطلوب، في بعض الأحيان. وإذا مررنا على بعض الصور البلاغية، كالمقابلات، فإنها حقاً كانت عفوية وموفقة من حيث التوقيع والأثر الفني في القصيدة، فانظر إلى هذه المقابلات لترى ما فيها من روعة وحسن:

إذا مسّه الشر لم يكتئب وإن مسّه الخير لم يعجبِ[1]

وكذلك قوله[2]:

(١) ديوانه: ٣٣.
(٢) ديوانه: ٧٢.

ولـسـنـا نـردُّ الـروح في جـسـم مـيّـتٍ
وكـنـا نـسُـلُّ الـروحَ ممـن تـبشّرا
نمـيتُ ولا نـحـيـي كـذاك صـنـيـعـنـا
إذا الـبـطل الحـامـي إلى المـوت أهـجـرا

وقوله[1]، ولكن في مجال آخر غير المقابلة، وهو من أحاسن شعره:

تـبـدو كـواكـبُـه والـشـمسُ طـالـعـةً
لا الـنـور نـورٌ ولا الإظـلام إظـلامُ

وفي التشبيهات له الكثير، مما جاء عفو المخاطر، وبغية الإيضاح فحسب[2]:

كـأن تبـسـمـهـا مَـوْهـنـاً سنا المسكِ حين تحسُّ النُّعامى

أمّا الكناية، فهو أول من طرق بابها، وسار الشعراء على طريقته من بعده:

أُكْني بغـيرِ إسمهـا وقـد علمَ اللّهُ خفيّـاتِ كـلِّ مكـتَتَـمِ[3]

واللغة، تبعاً لما ذكرنا آنفاً، هي لغة العصر، وتتفاوت من قصيدة إلى أخرى، ومن بيت إلى آخر، وبحسب الموضوع والفكرة، ويمكن القول إن ألفاظه استمدّت من البيئة الجاهلية وكذلك من الإسلام، فمن الأولى كان الغريب والعويص من الكلمات، ومن الإسلام أخذ الكلمات السهلة، التي لها دلالة أخلاقية.

ومما أخذه عن الأولين من المعاني، موقفهم من الدهر وكذلك

---

(١) ديوانه: ٢٣٩.
(٢) ديوانه: ٢٣٨.
(٣) ديوانه: ١٥٠. الأغاني: ٢٧/٥.

الكثير من صفات الخمرة وطرائق الغزل وأساليبه، كما استمد بعض الأمثال وصاغها شعراً كقوله[1]:

وإنْ امرءاً أهدى إليك قصيدةً
كمستبضعٍ تمراً إلى أرض خيبرا

أخيراً، لمّا كان الشاعر عاش بين عصرين يختلفان في كل شيء تقريباً، فلم يكن من السهل التحوّل بسرعة، فمثل هذا التحوّل يقتضي زمناً طويلاً، ولا تظهر نتائج الانقلابات الثقافية والفكرية والدينية إلاّ بعد جيل أو جيلين، ولم يظهر ذلك عندنا إلاّ في أواخر العصر الأموي.

(١) ديوانه: ٧٥. ويقال أيضاً: لمستبضع التمر إلى خيبر. راجع مجمع الأمثال للميداني: ١٥٢/٢.

الخاتمة

بحثت، في هذا الكتاب، في حياة النابغة الجعدي وعصره، وتناولته كشاعر صحابي مخضرم عاش بين عصرين، وأعطى من الشعر الكثير، ولكن للأسف لم يصل إلينا كل ديوانه، فبنيت ما توصّلتُ إليه من الأحكام المتواضعة على أقوال الرواة والنقّاد من جهة، وعلى ما بين أيدينا من شعر النابغة من جهة أخرى. وإنّ المجال يبقى مفتوحاً، لجهة البحث عن المفقود أو المبعثر من شعره مما يتيح الفرصة مجدداً نحو مزيد من الدرس والتحليل للتعرُّف على سيرة وشخصية النابغة الجعدي، وإني لأرجو أن يلقى هذا الأمر العناية التي يستحقها.

والحمد لله رب العالمين

مختــارات

المتقارب

سـها لـك هـمٌّ ولم تَـطربِ	وبـتَّ ببـثٍّ ولم تَـنْـصـبِ[1]
وقـالت سليمى أرى رأسـهُ	كنـاصيّـة الفـرس الأشهبِ[2]
وذلـك مـن وَقَعـات المنـونِ	فـفيئـي إليـكِ ولا تـعـجـبي
أتـينَ عـلى إخـوتي سبعـةً	وعُـدْنَ عـلى رَبْعيَ الأقـرب
وسـادةِ رهـطيَ حـتى بقـيْـ	ـتُ فـرداً كصِيصيَةِ الأعْضَبِ[3]
فـليتَ رسـولاً لـه حـاجـة	إلى الفَلَجِ العَـوْدِ فـالأشْعبِ[4]
ودَسْـكَـرَةٍ صـوت أبـوابها	كصوتِ المـواتِحِ بـالحـوْأبِ[5]
سبقتُ صيـاح فـراريجها	وصـوتَ نـواقيسَ لم تضرَبِ[6]
بـرَنَّـةِ ذي عَـتَـبٍ شـارِفٍ	وصهبـاءَ كـالمسـكِ لم تُقْـطَبِ
وقَـهـوةِ صهبـاءَ بـاكـرْتُهـا	بِجُهْـمَـةِ والـديـك لم يَنْعِبِ
وجُـرْدٍ جـوانِـحَ وِرْدَ القـطا	يُـوائِلنَ من عَـنَتٍ مُـطنِبِ[7]

(١) تنصب: تتعب.

(٢) الناصية: منبت الشعر في مقدم الرأس. الأشهبِ: اللون الأبيض فيه سواد.

(٣) الصيصية: القرن. أعضب: مكسور القرن.

(٤) الفلج والأشعب: قريتان باليمامة.

(٥) الـدسكرة: عنـد الأعاجم أمـاكن اللهو. المـواتـح: جمـع المـاتـح: المستقي. الحوأب: الواسع من الدلاء.

(٦) النواقيس: الأجراس.

(٧) الجرد: جمع الأجـرد وهو من الخيـل قصير الشعـر دليل كـرمه. جـوانح: من جنح يمضي أسرع.

خرجنَ شماطيطَ من غارةٍ ... بألفٍ تكتّبُ او مِقْنَبِ[1]

كأنَّ الغبارَ الذي فوقهن ... ضُحَيّاً دواخِنُ من تَنْضُبِ[2]

تلافيتُهُنَّ بلا مُقرِفٍ ... بطيءٍ ولا جَذَعٍ جأنَبِ[3]

بعاري النّواهِقِ صَلْتِ الجبيـ ... ـن أجرَدَ كالصَّدَعِ الأشعبِ

يُقَطِّعُهنَّ بتقريبهِ ... ويأوي إلى حُضُرٍ مُلهِبِ[4]

وإرخاءِ سِيدٍ إلى هضبةٍ ... يُوائِلُ من بَرَدٍ مُهذِبِ[5]

إذا سيقتِ الخيلِ وسْط النهار يُضرَبن ضرباً ولم يضرَبِ

غدا مَرِحاً طرباً قلبُه ... لَغِبْنَ وأصبح لم يلغَبِ[6]

فليقُ النَّسا حَبِطُ الموقفين ... يَستَنُّ كالتَّيسِ في الحُلَّبِ

مُدِلٌّ على سَلِطاتِ النسو ... ر شُمِّ السَّنابك لم تقلبِ

صحيحُ الفُصوصِ أمينُ الشَّظا ... نِيامُ الأباجِلِ لم تُضرَبِ[7]

كأنَّ تماثيلَ أرساغِهِ ... رِقابُ وعولٍ لَدى مَشْرَبِ

كأنَّ حوافِرَهُ مُدْبِراً ... خُضِبْنَ وإن كان لم يُخْضَبِ

---

(١) شماطيط الخيل: الخيل المتفرقة. المقنب من الخيل: ما بين الثلاثين والأربعين.

(٢) التنضب: شجر كثير الدخان.

(٣) جأنب: قصير. الجذع في الخيل: له سنتان من العمر.

(٤) التقريب: ضرب من العدو. والحُضُر: ضرب من عدو الدواب. ملهب: شديد.

(٥) إرخاء: ضرب من سير الذئاب. والسِّيد: الذئب. يوائل: يلجأ.

(٦) يلغب: يتعب.

(٧) الفصوص من الفرس: مفاصل ركبتيه. الشظى: عُظيم ملتصق بالذراع. الأباجل: جمع الأبجل: عرق غليظ من الفرس أو البعير.

جِجَارَةُ غَيْلٍ بِرَضْرَاضَةٍ كُسِينَ طِلاءً من الطُّحلُب[1]
وَأوظِفَةٌ أيُّدٌ جَدْلُها كأوظِفَةِ الفالِج المصعَب[2]
ولَوحُ ذراعَينِ في بِركةٍ إلى جُؤْجُؤٍ رَهِلِ المنكِب[3]
أمِرٌ ونحّيَ مِن صلبِهِ كتنحيةِ القَتبِ المُجلَب
على أنّ حارِكَهُ مُشرِفٌ وظَهْرَ القطاةِ ولم يَجْدَب[4]
كأنَّ مَقَطَّ شراسيفِه إلى طَرَفِ القُنبِ فالمَنقَبِ
لُطِمْنَ بِتُرْسٍ شديدِ الصِفا قِ من خشَبِ الجوزِ لم يُثْقَبِ
وَيَصْهِلُ في مثل جوف الطَّويّ صهيلاً يُبَيِّنُ للمُعْرِب
ومن دون ذاك هَوِيٌّ له هَوِيُّ القُطاميّ للأرنب
كأنَّ تواليَها بالضحى نواعِمُ جَعْلٍ من الأثأبِ[5]

الطويل

قال:

خليليَّ عُوجا ساعةً وتَهَجَّرا ولو ما على أحدَثَ الدَّهرُ أو ذَرا
ولا تجزعا إنَّ الحياة ذميمةٌ فخِفّا لِرَوْعاتِ الحوادِثِ أو قِرا
وإن جاء أمرٌ لا تَطيقانِ دفعهُ فلا تجزَعا مما قضى الله واصبِرا
ألم تَريا أنَّ الملامة نفعُها قليلٌ إذا ما الشيءُ ولّى وأدبَرا
تهيجُ البُكاءَ والنَّدامةُ ثمَّ لا تُغيرُ شيئاً غيرَ ما كان قُدِّرا

---

(١) الرضراضة: الأرض الصلبة. الطحلب: خضرة تعلو الماء الراكد.
(٢) أوظفة: جمع وظيف وهو مستدق الذراع والساق من الخيل والإبل. أيّد: قوي. فالج: جمل ضخم. المصعب: الفحل لم يُرَض.
(٣) جؤجؤ: صدر.
(٤) الحارك: فروع الكتفين. القطاة: مقعد الردف.
(٥) الجعل: صغار النخل. الأثأب: ضرب من الشجر.

أتيتُ رسول الله إذ جاءَ بالهدى
ويتلو كتاباً كالمجرَّةِ نيّرا

خليليَّ قد لاقيتُ ما لم تلاقيا
وسُيِّرْتُ في الأحياءِ ما لم تُسَيَّرا

تذكَّرتُ والذكرى تهيجُ لذي الهوى
ومن حاجةِ المحزونِ أن يتذكَّرا

نداماي عندَ المنذر بن مُحَرِّقٍ
أرى اليوم منهم ظاهر الأرض مُقفِرا[1]

كهولاً وشبّاناً كأنَّ وجوهَهُم
دنانيرُ مما شيفَ في أرضِ قيصرا

وما زلتُ أسعى بين بابٍ ودارةٍ
بنجرانَ حتى خِفتُ أن أتنصَّرا

لدى مَلِكٍ من آل جفنة خالُه
وجدّاه من آلِ امرىء القيس أزْهرا

يُديرُ علينا كأسه وشِواءه
مَناصِفُه والحضْرميُّ المُحَبَّرا

خنيفاً عِراقياً وَرَيْطاً شآمياً
ومُعتصِراً من مسك دارينَ أذْفرا[2]

وتيهٍ عليها نسجُ ريحٍ مريضةٍ
قطعت بحُر جوج مُسانَدَةِ القرا

---

(١) المنذر بن محرِّق: هو المنذر بن ماء السماء، وكان قد قُتل في حربٍ مع الغساسنة حوالي سنة ٥٥٦ رومية.

(٢) دارين: موضع بالبحرين.

خَنوفٍ مَروحٍ تُعجِل الوُرْق بعدما
تُعرِّسُ تشكو آهةً وتذَمُّرا[1]

وتعبُرُ يعفورَ الصَّريم كِناسَهُ
وتخرجُهُ طَوْراً وإن كان مُظهِرا[2]

كَمُرقَدةٍ فرْدٍ من الوحش حُرَّةٍ
أنامَتْ بذي الذِّئبيْنِ بالصيف جُؤذرا[3]

فأمسى عليه أطلسُ اللون شاحِباً
شحيحاً يُسَمِّيهِ النُّياطِيُّ نَهْرَا[4]

طويلُ القرا عاري الأشاجع ماردٌ
كشَقِّ العصا فوهُ إذا ما تضوَّرا

فباتَ يُذكِّيه بغير حديدة
أخو قَنَصٍ يُمسي ويصبح مُقفِرا[5]

فلاقَتْ بياناً عندَ أوَّلِ مرْبض
إهاباً ومعبوطاً من الجَوْفِ أحْمرا[6]

ووجهاً كبرقوع الفتاة مُلَمَّعاً
وَرَوْقَيْنِ لما يعدوا أن تَقَمَّرا[7]

فلمَّا سقاها البأسُ وارتدَّ همُّها
إليها ولم يترُكْ لها مُتأخَّرا

---

(١) خنوف: دابة ترمي يديها إلى وحشيها.
(٢) اليعفور: البقر الوحشي. الكِناس: بيت البقر الوحشي.
(٣) الجؤذر: البقرة الوحشية.
(٤) أطلس: أملس أو لا شعر له.
(٥) يذكيه: يذبحه. أقفر: جاع.
(٦) العبيط: اللحم.
(٧) تقمّرها: صادها.

أتيح لها فردٌ خلا بينَ عالِجٍ
وبينَ حِبالِ الرَّمل في الصيف أشهُرا
كسا دفعُ رِجْليْها صفيحةَ وجهِه
إذا انجَرَدَتْ نبتَ الخزامى المُنَوَّرا
مُروجَ كسا القَريانُ ظاهرَ لونِها
مِراراً من القُرّاص أحوى وأصفرا
فباهى كفحل الحوشِ يُنغِضُ رأسه
كما يُنغِضُ الوضعُ الفنيقَ المُجَفَّرا[1]
ووَلَّتْ به روحٌ خِفافٌ كأنها
خذاريفُ تُزْجي ساطِعَ اللون أغبرا
كأصداف هِنْديّينَ صُهبٌ لِحاهمُ
يبيعون في دارين مِسكاً وعنبرا[2]
فباتتْ ثلاثاً بين يومٍ وليلةٍ
وكان النكيرُ أن تضيف وتَجْأرا
وباتت كأنَّ كشحَها طيُّ رَيْطةٍ
إلى راجحٍ من ظاهر الرمل أعفرا[3]
تلألأ كالشِّعري العَبورِ توقَّدت
وكان عماءٌ دونَها فتحسَّرا[4]

---

(١) الحُوش: فحول من الجن. ينغض: يحرِّك.
(٢) دارين: موضع البحرين.
(٣) راجح الوزن: ثقيل.
(٤) الشِّعري: من النجوم.

يمورُ الندى في مِذْرَيَيْها كأنّهُ
فريدٌ هَوى من سِلكه فتحدَّرا[1]

وعاديةٍ سَوْم الجرادِ شِهِدْتُها
فكفّلتُها سيداً أزلَّ مُصدَّرا[2]

أشقُّ قسامِيّاً رُباعيٌّ جانِب
وقارحَ جنبٍ سُلَّ أقرحُ أشقرا[3]

شديدُ قلاتِ المِرفقَين كأنّما به نفسٌ أو قدْ أرادَ لِيَزْفَرا

يُمَرُّ كَمَرِّيخ المُغالي انتحَت بِه
شِمالُ عُباديّ على الريح أعسَرا

ويُبقي وجيفُ الأربَعِ السودِ لحمَهُ
كما بُنيَ التابوتُ أحْزَمَ مُجفَرا

فلما أتى لا ينقُصُ القَوْدُ لحمَهُ
نَقَصْتُ المديدَ والشعيرَ ليضمُرا

وكان أمام القومِ منهم طليعةٌ
فأربى يَفاعاً من بعيدٍ فبَشّرا

ونَهْنَهْتُهُ حتى لَبِستُ مُفاضَةً
مُضاعَفةً كالنِّهي ريح وأُمطِرا[4]

وجمّعتُ بزّي فوقه ودفعته
ونأنأتُ منهُ خشيةً أن يُكَسّرا

---

(١) المدريان: القرنان. الفريد: العِقد.

(٢) عادية: حاملة. سوم الجراد: مضيه.

(٣) الأشق: الطويل من الخيل والرجال.

(٤) نهنهته: منعته.

وعرّفتهُ في شدّةِ الجري باسمِهِ
واشليتُهُ حتى أراحَ وأبصرا[1]

فظلّ يُجاريهم كأنّ هُويَّهُ
هُويُّ قُطاميّ من الطير أمْعرا[2]

أزُجُّ بذلقِ الرُّمحِ لحييْهِ سابقاً
نزائِعَ ما ضمَّ الخميسُ وضمَّرا

لهُ عُنُقٌ في كاهلٍ غيرُ جانبٍ
ولَجٌ بلحييْهِ ونُحّي مُدْبِرا

وبطنٌ كظهرِ التُّرسِ لو شُلَّ أربعاً
لأصبحَ صفراً بطْنُهُ ما تخرْخرا[3]

فكفَّ أولي شقرٍ جياداً ضوامِراً
فزحزحَها عن مِثلِها أنْ تصدّرا

فأرسِلَ في دُهْمٍ كأنَّ حنينها
فحيحُ الأفاعي أُعجِلتْ أن تُجحرا

لها حجلٌ قُرْعُ الرؤوسِ تحلّبتْ
على هامَةٍ بالصيفِ حتى تمَوَّرا

إذا هي سيقتْ دافعت ثفِناتُها
إلى سُرَرٍ بُجْرٍ مزاداً مُقيَّرا

وتغمِسُ في الماءِ الذي باتَ آجناً
إذا أوْرَدَ الراعي نضيحاً مُجيَّرا[4]

---

(١) اشليته: اغربته.
(٢) شعر امعر: متساقط.
(٣) شل: طرد.
(٤) الماء الآجن: المتغير.

حناجرَ كالأقماعِ فَحَّ حنينُها
كما نفخ الزُّمَّارُ في الصبح زَمْخَرا[1]

ومهما يقُلْ فينا العدو فإنهم يقولون معروفاً وآخرَ منكِرا
فما وجدَتْ من فِرقةٍ عربيةٍ كفيلاً دنا منا أعزَّ وأنصرا
وأكثر منّا ناكحاً لغريبةٍ أصيبتْ سِباءً أوْ أرادتْ تخيُّرا
وأسرع منّا إن أردنا انصرافةً وأكثر منّا دارعين وحُسَّرا[2]
وأجدرَ أن لا يتركوا عانياً لهم فَيَغبُرُ حولاً في الحديد مُكفَّرا[3]
وأجدَرَ أنْ لا يترُكوا من كرامةٍ ثويّاً وإن كان الثَّوايةُ أغضرا

وقد آنَسَتْ منّا قُضاعةُ كالئاً
فأضحَوا ببصْرَى يعصرون الصنوبرا
وكِنْدةُ كانت بالعقيقِ مُقيمةً
ونَهدٌ فكلاًّ قد طَحرْناه مَطحرا[4]
كِنانةُ بين الصخرِ والبحر دارُهُمْ
فأحجَرها إن لم تجِدْ متأخَّرا
ونحن ضربنا بالصَّفا آل دارِمٍ
وحسّانَ وابن الجُون ضرباً منكَّرا
وعلْقَمَةَ الجعفيَّ أدرك ركضُنا
بذي النخل إذ صام النَّهارُ وهَجَّرا
ضربنا بُطون الخيلِ حتى تناولتْ
عميدَيْ بني شيبانَ عَمْراً ومُنذرا

---

(١) الزمخر: قصب المزمار.
(٢) دارع: وضع الدرع.
(٣) العاني: الأسير.
(٤) طحر: قهر.

أرحنا مَعدّاً من شراحيلَ بعدما
أراها مع الصبح الكواكبَ مُظهِرا
تمرّنَ فيه المضْرَجيَّةُ بعدما
رَوَيْنَ نجيعاً من دم الجوفِ أحمرا[1]
ومن أسدٍ أغوى كهولاً كثيرة
بنَهْي غُرابٍ يوم ما عَوَّجَ الذُرا
وتنكِرُ يومَ الرُّوعِ ألوان خيلِنا
من الطُعنِ حتى تحسِبَ الجوْن أشقرا
ونحن أُناسٌ لا نُعوِّدُ خَيْلَنا
إذا ما التقينا أن تَحيدَ وتنفِرا
وما كان معروفاً لنا أن نرُدَّها
صِحاحاً ولا مُستنْكِراً أن تُعقَّرا
بلغنا السما مجداً وجوداً وسودَداً
وإنّا لنرجو فوق ذلك مظهرا
وكلُّ معدٍّ قد أحلَّتْ سيوفنا
جوانب بحرٍ ذي غواربَ أخضرا
لعمري لقد أنذرتُ أزداً أناتَها
لتنظر في أحلامِها وتفكِرا
وأعرضتُ عنها حِقبةً وتركتُها
لأبلُغ عذراً عند ربي فأعذَرا
وما قلتُ حتى نال شتَمٌ عشيرتي
نُفَيلُ بن عمروٍ والوَحيدَ جَعفرا

---

(١) النجيع: الدم.

وَحـيٌّ أبي بـكـرٍ ولا حـيٌّ مثلهُم
إذا بـلغ الأمـر الـعـمـاسَ المُـذَمَّـرا
ولا خـير في حِـلمٍ إذا لم يـكـن لـه
بـوادِرُ تحـمـي صـفـوَهُ أن يُـكـدَّرا[1]

ولا خـير في جـهـلٍ إذا لم يـكـنْ لـهُ
حـليـمٌ إذا مـا أوردَ الأمـرَ أصـدَرا
فـفـي الحِـلمِ خـيرٌ مـن أمـورٍ كـثـيـرةٍ
وفي الجـهـلِ أحـيـانـاً إذا مـا تـعـذَّرا
كـذلـك لعمـري الـدهـرُ يومـانِ فاعـرِفوا
شرورٌ وخـيرٌ لا بـلِ الشرُّ أكْـثَرا
إذا افـتـخـرَ الأزديُّ يـومـاً فـقـل لـهُ
تـأخَّـرْ فـلن يجْـعَـلْ لـك الله مـفـخـرا
فـإن تـرِدِ الـعـليـا فـلسـت بـأهـلِهـا
وإن تـبـسُـطِ الـكـفـين بـالمـجـدِ تُـقصرا
إذا أدلـجَ الأزديُّ أدلَـجَ سـارقـاً
فـاصـبـحَ مخـومـاً بـلَوْمٍ مَـعـزَّرا

وقال:

(المتقارب)

لبِستُ أنـاسـاً فـأفْنَيْتُهُـمْ وأفـنيْـتُ أُنـاسٍ أُنـاسـا[2]
ثـلاثـةَ أهـلينَ أفـنَـيـتُـهُـم وكـان الإلَـهُ هـوَ المُستـآسـا[3]

---

(١) البوادر: ما يُقال عند الغضب.
(٢) لبست أناساً: عَمِّيت بهم دهراً. أفنيتهم: عُمّرت بعدهم.
(٣) استآس: طلبِ العوض.

وعِشتُ بـعَيْشـين إنّ المنـون / تَلْقَى المعـايِشَ فيها خِسـاسـا
فـحيـنـاً أصـادِفُ غِـرّاتِهـا / وحينـاً أصادِفُ منها شِماسـا[1]
نشأتُ غُلاماً أقاسي الحروبَ / ويَلقي المُقاسونَ منّي مِـراسـا
وحُمْرٍ من الطّعنِ غُلبِ الرِّقا / بِ كالأسْدِ يفترسون افتراسـا
شَهِدْتُهم لا أزجّي الحيـا / ةَ حتى تَساقَوا بسُمرٍ كياسـا
وشُعبٍ يُطابقنَ بالدّارعينَ / طِباقَ الكلاب يَطَأْنَ الهَراسـا[2]
فلمّا دنَونا لجُرْسِ النّبوح / ولا نُبصِرُ الحيَّ إلاّ التِماسـا
أضاءَتْ لنا النارُ وَجْهاً أغرَّ / مُلْتبسـاً بالفؤادِ التِبـاسـا
يُضيءُ كضوءِ سِراجِ السَّليطِ لم يجعلِ الله فيه نُحاسـا[3]
بـآنِـسـةٍ غـيرِ أنسِ القـرا
فِ تَخْلِطُ بالأنس منها شِماسـا[4]
إذا ما الضَّجيعُ ثنى جيدَها / تَثَنَّتْ عليه فكانت لِباسـا[5]
بِعيسٍ تـعَـطَّفُ أعنـاقُـهـا / كما عَطَّفَ الماسخِيُّ القِياسـا[6]
سَبَقْتُ إلى فَـرَطٍ ناهِـلٍ / تَنابِلَةً يَحفِرونَ الرِّسـاسـا[7]
وحَربٍ ضروسٍ بها ناخِسٌ / مَرَيْتُ برُمحي فكان اعتساسـا[8]
أمـام لِـواءٍ كـظِلِّ العُقا / بِ مَنْ يـأتِهِ يَلقَ طَعناً خِلاسـا

---

(١) غِرّات: جمع غِرّة: غفلة.
(٢) الهراس: شوك كأنه حسك.
(٣) السليط: الزيت. والنحاس: الدخان المفسد.
(٤) القِراف: المخالطة. الشماس: عدم مطالعة الرجال.
(٥) لباس: تطلق على المرأة.
(٦) الماسخي: القوّاس.
(٧) تنابلة: جمع تنابل: قصير. الرساس: جمع رس: البئر.
(٨) ضروس: أكول. الناخس: وعل طويل القرنين. مرى الضرع: مسحه.

فأصبحَ في الناسِ كالسامِريِّ إذ قال مُوسى له لا مِساسا[1]

قال:

(الرمل)

لمنِ الدارُ كأنضاءِ الخِلَلْ
عَهدُها من حِقَبِ العيش الأُوَلْ[2]

بمغاميدَ فأعلى أُسُنٍ فحُنانات فأوْقٍ فالجَبَلْ[3]

فبرَغمَينَ فرَيْطاتٍ لها وبأعلى حُرُّيات مُنتَقَلْ

فذِهابُ الكُورِ أمسى أهلَهُ كلُّ مَوْشيِّ شَواهُ ذو رَمَلْ[4]

دارُ قومي قبل أن يُدرِكَهُمْ عَنَتُ الدهرِ وعيشٌ ذو خَبَلْ[5]

وشمولٍ قهوةٍ باكرتُها في التَّباشيرِ من الصُّبْحِ الأُوَلْ[6]

باشَرَتْهُ جَوْنَةٌ مَرشومَةٌ أوْ جديدٌ حَدَثُ القارِ حَجَلْ

وضعَ الأسكوبُ فيه رُقَعاً مثل ما يُرقِعُ بالكَيِّ الطَّحِلْ[7]

فشرِبْنا غيرَ شرْبٍ واغلٍ وعَلَلْنا عَلَلاً بعدَ نَهَلْ[8]

وعناجيجَ جيادٍ نُجُبٍ نَجْلِ فيّاضٍ ومن آلِ سَبَلْ[9]

قُصِرَ الصُّنْعُ عليها دائباً فإذا الصاهلُ منهنَّ صَهَلْ

---

(١) يُقال: لا مِساس لا مِساس بمعنى: لا خير في الجرب.

(٢) أنضاء: جمع نضو: بالي. خِلل: جمع خِلة.

(٣) أُسُن: جبل في ديار بني جعدة. ومثله مغاميد وحنانات وأوق والجبل.

(٤) الرمل: خطوط سود على ظهر الغزال. الشوى: الأطراف.

(٥) عنتُ الدهر: مشقته.

(٦) الشمول: الخمرة.

(٧) الأسكوب: الصانع.

(٨) لنهل: الشرب الأول. والعلل: الشرب الثاني.

(٩) العناجيج: جياد الخيل.

جـاوبتـه حُـصُـنٌ مُمْسَكَـةٌ | ارنـاتٌ لم يلوّحْهـا الهَمَـلْ[1]
مثـل عـزفِ الجنّ في صَلصَلَةٍ | ليس في الأصوات منهن صَحَلْ
فجـرى من مِنْخَـرَيْـهِ زَبَـدٌ | مثل ما أثمرَ حُمّاضُ الجَبَـلْ[2]
فـعـرفـنـا هِـزّةً تـاخـذُهُ | فقَـرنّـاهُ برضْراضٍ رِفَـلْ[3]
أيّـدِ الـكـاهِـل جِلدَ بـازِلٍ | أخلف البـازلَ عامـاً أو بَـزَلْ[4]
فَـظنـنّـا أنـه غـالـبـه | فـزجـرنـاهُ بيَهيـاهٍ وَهَـلْ[5]
رُفِـعَ السّـوطُ ولم يُضرَب بـه | فـأرَنّ الوَقْـعُ منه واحتَفَـلْ
كَليـاً من حِسّ مـا قـدْ مسّـهُ | وأفـانـينِ فـؤادٍ مُحْـتَـمَـلْ
فـاستوت لِهـزِمَتا خَـدّيْهـا | وجـرى الشِّفُ سواءً فـاعتدَلْ[6]
فـتـآيـا بـطريـرٍ مـرهـفٍ | جُفـرةَ المَحْـزم منـه فَعَـلْ[7]
عَسَلانَ الـذئبِ أمسى قـارِبـاً | بَـرَدَ الليـلُ عليـه فَنَسَـلْ[8]
خـارِطٌ أحْـقَبُ فِلْوٌ ضـامِـرٌ | أبلَقُ الحقوَيْن مَشطوبُ الكَفَلْ[9]
فأدَلَّ الـعَـيْرُ حـتى خِـلْتَـهُ | قفصَ الأمرانِ يعدو في شَكَلْ[10]

---

(١) أرنات: نشيطات.

(٢) الحُمّاض: بقلة برّيّة.

(٣) رِفلّ: سابغ الذنب. رضراض: كثير اللحم.

(٤) البازل: البعير إذا ظهر له نابان. والكاهل: العاتق.

(٥) بهياه وهل: لزجر الإبل.

(٦) اللهزمتان: عظمتان ناتئتان في اللحيين تحت الأذنين. الشف: الفضل.

(٧) تآيا: تعمد أيته أي شخصه. جفرة الفرس: وسطه. المحزم: الصدر.

(٨) عسلان الذئب: عدوه مسرعاً. التقريب: ضرب من العدو.

(٩) خارط: لا يستقر في بطنه علف. مشطوب: قليل اللحم. الأحقب: الحمار الوحشي في بطنه بياض.

(١٠) قفص الظبي: شد قوائمه وجمعها. الأمران: جمع مَرن: عصب باطن العضدين.

قـال صحبي إذْ رَأوْهُ مُقْبـلاً ما تـراهُ شـانـهُ قـلتُ أدَل
ليت قيسـاً كلُّها قـد قطعَتْ مُسحُـلاناً فحصيـدْاً فتُبَـلْ[1]
فـالأشـاقيْ فـاعـل حـامِـرٍ فلِوى الخرّ فأطرافُ الرّجَلْ[2]
جـاعِلينَ الشـامَ حَمّـاً لَهـمُ ولئن همّـوا لنِعمَ المُنْتَقـلْ[3]
مـوتُـهُ أجْـرٌ ومحيـاهُ غـنىً وإلـيـه عـن أذاةٍ مُـعـتـزَلْ
سـألـتني جـارتي عـن أمّتي وإذا مـا عَيَّ ذو اللُّبِ سَـأَلْ
سـألتني عن أنـاسٍ هلكـوا شـربَ الـدهـرُ عليهم وأكَـلْ
بَـلغـوا المُلْكَ فـلمّا بـلغـوا بخسـارٍ وانتهى ذاك الأجَـلْ
وضـع الـدهـرُ عليهم بـركَـة فـأبيدوا لم يغـادر غيرَ فَـلّ[4]
فـأراني طـربـاً في إثْـرِهِـم طَـرَبَ الوالِـهِ أو كـالمُختَبَـلْ
أنشـدُ النـاسَ ولا أنشُـدُهم إنمـا ينشُـدُ من كـانَ أضَـلْ

لـيـت شـعـري إذ مضى مـا قـد مضى
وتجـلّى الأمـرُ لله الأجَـلّ

مـا يُـظَنّـنَ بنـاسٍ قـتلوا أهـل صِفّين وأصحابَ الجَمَـلْ
وابـنَ عفّـانَ حنيفـاً مُسـلماً ولُحـوم البُـدْنِ لمـا تُنْتَقَـلْ[5]
أيـنـامـونَ إذا مـا ظـلمـوا أم يـبيتـون بخـوفٍ ووَجَـلْ

---

(١) مُسحلان: وادٍ من أدوية أود. وحصيد وتبل: موضعان آخران.
(٢) الأشـاقي: وادٍ في ديار قيس. حـامر: مـوضع على الفرات. الرّجل: جمع رِجْلة.
(٣) الحمّ: القصد.
(٤) فلّ القوم: منهزموهم.
(٥) ابن عفّان: الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفّان رضي الله عنه. البُدن: جمع البُدنة: الناقة.

ولهم سيما إذا تُبْصِرُهُمْ بَيَّنَتْ ريبةَ من كان سأل
فتمطّى زخريٌّ وارمٌ من ربيعٍ كلما خَفَّ هَطَل[1]
منعَ الغَدْرَ فلم أهْمُمْ به وأخو الغدرِ إذا هَمَّ فعل
خشيةُ الله وأني رجُلٌ إنما ذِكري كنارٍ بقَبَل
يتواصَوْنَ بقتلي بينهم مُقبِلي نَحويَ أطرافَ الأسَل[2]
إن تَرَيْ هَمّي أمسى شاغلي وإذا ما نوجِيَ الهمُّ شغَلْ[3]

قال:

(البسيط)

إمّا تَرَيْ ظُلَلَ الأيامِ قد حسَرتْ
عني وشمّرتْ ذَيْلًا كان ذَيّالا[4]
وعممتني بقايا الدهرِ منْ قُطُنٍ
فقد أنضَجُ ذا فِرقَينِ ميّالا[5]
فقد تروعُ الغواني طلعتي شعَفاً
ينصُصنَ أجيادَ أُدمٍ ترتعي ضالا[6]
في غِرّةِ الدهرِ إذ نُعمانُ ذو تبعٍ
وإذ ترى الناسَ في الأهواء هُمّالا[7]

---

(١) الزخري: النبات حين يطول.
(٢) الأسل: القنا.
(٣) تناجى القوم: تسارّوا.
(٤) حسر: كشف. الظلل: جمع الظلة: السحابة تظل.
(٥) عممتني من قطن: علا رأسه الشيب. نضج: ارتفع.
(٦) الغواني: جمع الغانية: الفتاة غنيت بجمالها. الشعف: شدة الحب. النص: السير الشديد. الأدمة في الإبل: البياض الشديد. الضال: السدر البري.
(٧) غِرّة الدهر: غفلته. الغارّ: الغافل. همّال وهُمّل: أي ترعى بلا راعٍ.

حتى أتى أحمدَ الفرقانُ يقرؤه
فينا وكنّا بغيبِ الأمرِ جهّالا
فالحمدُ لله إذ لم يأتني أجلي
حتى لبستُ من الإسلامِ سربالا
يا بنَ الحيا إنّني لولا الإله وما
قال الرسولُ لقد أنسيتُك الخالا[1]
لقد وسمتُك وسماً لا يغيّبُه
ثوباك يبرُق في الأعناق أحوالا
أن تهمّمُ فينا الناقصاتُ وقد
كنا نقدِّم للظلّام أنكالا[2]
فإنَّ صخرتنا أعَيتْ أباك ولا
يألو لها ما استطاع الدهرَ إخبالا
ردّتْ معاولَه خثماً مضللةً وصادَفتْ أخضر الجالَيْن صلّالا
فاذكر مساعي أقوامٍ فخرتَ بهم
ولا تدعهُم من الأسماءِ أغفالا
فقل هم رحلوا يوماً إلى مَلِكٍ
وقطّعوا عن عُناة الشّعبِ أغلالا[3]
كما فعلنا بحسّانَ الرئيس وبابن الجَوْنِ
إذ لا يريدُ الناس إقبالا[4]

---

(١) ابن الحيا: سوار بن أوفى القشيري.

(٢) الأنكال: القيود. والواحد نِكل.

(٣) عُناة: جمع عان وهو الأسير.

(٤) حسّان هو حسان بن عامر بن الجون. والجون الكلبي ملك هجَر.

إذ أصعدتْ عامرٌ لا شيءَ يحبِسُهم
حتى يروا دونهم هضباً وأنوالا
حتى عطفناهم عطفَ الضروسِ وهم
يلقَون مما تخافُ النفسُ بلبالا[1]
أو قُل هم قاتلوا شهباءَ مُضلعةً
قد قذفتْ في قلوبِ الناسِ أهوالا
من بعد ما استنطقت حيَّ الحريش وحيّاً من عُبادةَ لم تُنعمهم بالا[2]
ومثلهُم من بني عبسٍ تدفَّهم
دقَّ الرحى الحبَّ إدباراً وإقبالا
شهباءُ فِلقٌ شموسٌ نشرُها ذَفِرٌ
تلبّستْ من ثيابِ الكروِ أجلالا[3]
ثمَّ استمرّت شموسُ الريحِ ساكنةً
تُزجي تربَاعاً ضِعافَ الوطء أطفالا
حتى لحقناهم تُعدي فوارسُنا
كأنّنا رَعنُ قُفٍّ يرفعُ الآلا[4]
فلم نوقّف مُشيلينَ الرماحَ ولَمْ
نُوجَد عَواويرَ يومَ الرَّوعِ عُزّالا[5]
حتى خرجنَ بنا من جوف كوكبهم
حُمراً من الطَّعنِ أعناقاً وأكفالا

---

(١) بلبال: اضطراب.

(٢) الحريش: قبيلة من بني عامر.

(٣) الشهبة: بياض مع سواد. فرس شموس: عنيد. الذفر: شدة الرائحة.

(٤) الآل: السراب.

(٥) عزّال: لا سلاح معهم. عواوير: ضعفاء.

ثمَّ نزلنا وكسَّرنا الرماحَ وجرَّدنا

صفيحاً كسَتْه الرومُ دجّالا[1]

في غمرة الموت نغشاها ونركبُها

ثُمَّتَ نبدو كرامَ الصبرِ أبطالا

حتى غلبنا ولولا نحنُ قد علموا

حلّت سليلاً عذاريهم وجُمّالا

فإن يكن حاجبٌ ممَّن فخرتَ به

فلم يَكُن حاجبٌ عمّاً ولا خالا[2]

فإن يكن قدَمٌ بالشام ينشُدُها

فإنَّ بالشام أقداماً وأوصالا

من الجنودِ وممّن لا تعدُّ فلا

تفخر بما كان فيه الناس أمثالا

نحن الفوارسُ يومَي رَحرحان وقد

ظنَّتْ هوازنُ أنّ العزَّ قد زالا[3]

ويومَ مكّةَ إذ ما جدْتُم نَفَراً

حامَوا على عُقَدِ الأحسابِ أزوالا

عند النجاشيّ إذ تعطون أيديَكم

مقرَّنين ولا ترجونَ إرسالا[4]

---

(١) الصفيح: السيف العريض. الدجّال: ماء الذهب.

(٢) وحاجب: هو ابن زرارة بن عبد الله بن دارم التميمي.

(٣) رحرحان: جبل قريب من عكاظ. وكان فيه للعرب يومان. راجع الأغاني الجزء (٥).

(٤) النجاشي: ملك الحبشة. تعطون أيديكم: كناية عن الذل مقرنين: مشدودين بالحبل.

إذ تستحبُّون عند الخذلِ أنّ لكم
مِنْ آلَ جعدةَ أعماماً وأخوالا

لو تستطيعون أنْ تُلقوا جلودَكم
وتجعلوا جلدَ عبدَ الله سربالا[1]

إذنْ تسربلتم فيه لينجيكم
مّما يقول ابنُ ذي الجدَّين إذ قالا

تلك المكارمُ لا قعبانِ من لبنٍ
شيبا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا[2]

قال:

(المنسرح)

الحمدُ لله لا شريكَ له ... من لم يقُلها فنفسَهُ ظلما

المولجُ الليلُ في النهار وفي الليل نهاراً يُفرِّجُ الظُّلَما[3]

الخافِضِ الرافعِ السماءَ على الـ ... أرضِ ولم يَبْن تحتها دِعَما

الخالقِ البارىء المُصوِّرِ في الـ ... أرحامِ ماءً حتى يصيرَ دما

من نُطفَةٍ قَدُّها مُقدِّرُها ... يَخْلق منها الأبشارَ والنَّسما[4]

ثمَّ عِظاماً أقامها عَصَبٌ ... ثُمَّتَ لحماً كساهُ فالتأما

ثمَّ كسا الريش والعقائقَ ... أبشاراً وجلداً تخالُهُ أدَما[5]

---

(١) عبد الله: هو عبد الله بن جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة خال النابغة الجعدي.

(٢) القعب: القدح. شيبا: مُزجا.

(٣) المولج: من أولج أي ادخل.

(٤) النطفة: ماء الرجل. قدّها: قطعها. النسم: الروح والنفس.

(٥) العقائق: جمع العقيقة وهو الشعر الذي يخرج على رأس المولود. الأدم: جمع الأدمة: باطن الجلد. البشرة: ظاهر الجلد.

والصوتَ واللون والمعايشَ والأخلاقَ شتى وفرَّق الكلما
ثُمَّتَ لا بدَّ أن سيجمَعكُم والله، جهراً، شهادة قَسَما
فائتمِروا الآن ما بدا لكُمُ واعتصموا إنْ وَجدتُم عِصما[1]
في هذه الأرض والسماءِ ولا عِصمةَ منه إلاَّ لمن رَحِما
يا أيُّها الناسُ هل تَروْنَ إلى فارس بادَتْ وخدها رغِما
أمسَوْا عيداً يَرْعوْن شاءَكُم كأنَّما كانَ مُلكُهمُ حُلْما
أو سَبأ الحاضرينَ مأرب إذ يبنُونَ من دون سَيلِهِ العرِما[2]
فَمُزِّقوا في البلاد واعترفوا الهونَ وذاقوا البأساءَ والعدَما
وبُدِّلوا السِّدْرَ والأراكَ به الخمطَ وأضحى البنيانُ منهدِما[3]
يا مالك الأرض والسماء ومن يَفرَقْ من الله لا يَخَفْ أثَما
إنِّي امرؤٌ قد ظَلَمْتُ نفسي وإلاّ تعفُ عني أغلا دماً كثِما[4]
أُطرَحْ بالكافرينَ في الدَّرَكِ الأسفلِ يا ربّ أصطَلي الصرَما
يرفَعُ بالقارِ والحديدِ من الجوْرِ طِوالاً جذوعُها عُمُما
نودِيَ قُمْ واركَبَنْ بأهلكَ إنّ الله موفٍ للناس ما زعَما[5]

وقال:

من عهدِ ما أورثَتْ حبيبه والشرُّ يوافي مطالِعَ الأكَم
أكني بغير اسمها وقد عِلمَ اللهُ خفيَّاتِ كلّ مُكتَتَم[6]

---

(١) ائتمروا: اجمعوا آراءكم. العصمة: المنعة.

(٢) في البيت إشارة إلى سد مأرب الذي أخذه السيل قديماً في اليمن.

(٣) السِّدر: واحدته سِدرة: شجر النبق. الأراك: واحدته أراكة: شجر السواك. الخمْط: شجر له شوك.

(٤) دم كثِم: أي غليظ.

(٥) زعم: تكفّل.

(٦) في هذا البيت سبق الجعدي غيره بالكناية فهو أول من كنّى.

مخافةَ الكاشِحِ المُكثرِ أن يَطرحَ فيها عوائِرَ الكَلِمِ[1]
طَيِّبةَ النشرِ والبُداهةِ والعِلاّتِ عند الرُّقادِ والنَّسَمِ[2]
كأنَّ فاها إذا تبسَّم من طِيبِ مَشَمّ وحُسن مُبتَسَمِ
يُسَنُّ بالضَّروِ من براقِشَ أو هَيلانَ أو ضامِرٍ من العُتُمِ[3]
غرّاء كالليلة المباركةِ القمراء تَهدي أوائِلَ الظُّلمِ
رُكِّبَ في السّامِ والزَّبيبِ أقا حيُّ كثيبٍ تَندى من الرَّهَمِ
بماء مزنٍ من ماء دَومَةَ قد جُرِّدَ في ليلِ شَمْألٍ شَبِمِ
عُلَّتْ به قَرقَفٌ سُلافَةُ إسفنطٍ عُقارٌ قليلةُ النَّدمِ[4]
ألقِيَ فيها فلجانِ من مِسكِ دارينَ وفِلجٌ من فُلفُلٍ ضَرِمِ
رُدَّتْ إلى أكلَفِ المناكِبِ مَرسومٍ مُقيمٍ في الطين محتَدِمِ
جونٍ كجونِ الحمارِ جرَّدَهُ الخَرّاسُ لا ناقِسٍ ولا هَزِمَ[5]

وقال:

(الطويل)

يقولُ لمن يلحاهُ في بَذلِ مالهِ
أأنفِقُ أيامي وأترُكُ ماليا[6]
يُدِرُّ العروقَ بالسِّنانِ وَيشتري
من الحمدِ ما يبقى وإن كان غاليا

---

(١) الكاشح: العدو المبغض. العائر من الحجارة: لا يدري من رماه.
(٢) النَّشر: الرائحة. البُداهة: المفاجأة. على علاته: على كل حال.
(٣) يُسن: يسوَّك. الضرو: شجرة الكمكام، شجر طيب يستاك به. وهيلان وبراقش: واديان باليمن.
(٤) القرقف: الخمرة. سلافة الخمر: أولها. الإسفنط: الخمرة.
(٥) جَون: أسود. الخراس: صانع الدنان.
(٦) يلحاه: يلومه.

أشَمُّ طويلُ الساعدَين سَمَيْدَعُ
إذا لم يرُحْ للمَجدِ أصبح غاديا[1]
أتيحت له والغمُّ يحتضِرُ الفتى
ومن حاجةِ الإنسان ما ليس لاقيا

وقال:

(المتقارب)

وليست بشوهاءَ مقبوحةٍ ... توافي الديارَ بوجهٍ غَبِرْ[2]
فنْزر ذا وعدٌ إلى غيره ... فشرُّ المقالةِ ما يعتسرْ[3]
وما البغيُ إلاّ على أهلِه ... وما الناس إلاّ كهذي الشجرْ
ترى الغصن في عنفوان الشبا ... بِ يهتزُّ في بَهَجاتٍ خُضَرْ
زماناً من الدهرِ ثمّ التوى ... فعاد إلى صفرةٍ فانكسرْ

وقال.

(الرمل)

ولقد أغدو بشَرب أُنُفٍ ... قبلَ أن يظهرَ في الأرض رَبَشْ[4]
معنا زِق إلى سُمَّهَةٍ ... تَسِقُ الآكال من رَطْبٍ وَهَش[5]
فَنَزلنا بمليعٍ مُقفرٍ ... مَسُّهُ طَلٌّ من الدجنِ وَرَشْ[6]

---

(١) أشم سميدع: سيد ذو أنفة.
(٢) المقبوحة: التي تُرَدّ.
(٣) اعتسار الكلام: اقتضابه.
(٤) الشَّرب: اسم جمع لشارب. الربش: العشب والنبات.
(٥) سُمَّهة: خوص يجمع فيجعل شبيهاً بسفرة. الآكال: ما يؤكل. الهش: اليابس.
(٦) المليع: المفازة. الطلّ: الندى. الدجن: المطر الغزير. الرش: المطر الخفيف.

ولــديـنــا قَـيـنَــةٌ مُـسـمِـعـةٌ ضخمَةُ الأردافِ من غيرِ نَفشْ[1]
وإذا نــحـنُ بـإجـلٍ نـافـرٍ ونَعـامٍ خيـطُهُ مثـلُ الحَبش[2]
فـحَـمـلـنـا مـاهِـنـاً يُـنـصِـفُـنـا فوق يَعبوبٍ من الخيلِ أجَش[3]
ثُمَّ قلنـا دونـك الصيـد بـه تـدرِكِ المحبـوبَ منـا وتعشْ
فـأتـانـا بـشَـبـوبٍ نـاشِطٍ وظـليـمٍ مـعـه أمُّ خُشَش[4]
فـاشتـوينـا من غـريضٍ طَيِّبٍ غـير ممنـونٍ وأبنـا بغَبَش[5]

---

(١) القينة: المغنّية.
(٢) الإجل: القطيع من بقر الوحش. الخيط: جماعة النعام.
(٣) الماهن: الخادم. اليعبوب: الفرس السريع الطويل. الأجش: الغليظ.
(٤) الشبوب: النشط الحرون. الظليم: ذكر النعام. الخشش: الغزال الصغير.
(٥) الممنون: المقطوع. الغبش: بقية الليل.

ثبت المراجع والمصادر

شعر النابغة الجعدي، المكتب الإسلامي، ط ١/١٩٦٤، بيروت.
ديوان الأعشى الأكبر، مكتبة الآداب بالقاهرة.
ديوان دريد بن الصمّة، دار صعب، ١٩٨١، بيروت.
شرح المعلّقات السبع، الزوزني، دار صادر، بيروت.
العصر الإسلامي، شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط ٧، القاهرة.
الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، مصوّرة عن طبعة دار الكتب المصرية.
طبقات الشعراء، ابن سلام، دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٩٨٨، بيروت.
الشعر والشعراء، ابن قتيبة، دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٩٨٥، بيروت.
تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، دار المعارف بمصر، ط ٤.
التطوّر والتجديد في الشعر الأموي، شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط ٦.

الفهـرس